

الكتاب العربي السعودي ٦

عبدالله عبدالرحمن جفري

الظمأ

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م



الكتاب العربي السعودي ٦

عبدالله عبدالرحمن جفري



الطبعة الأولى
١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

بسم الله الرحمن الرحيم


الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥٥٠ ـ هاتف ٤٠٠٠٠



□□ الحياة تافهة في الضعف

الحياة قاسية في القوة ..

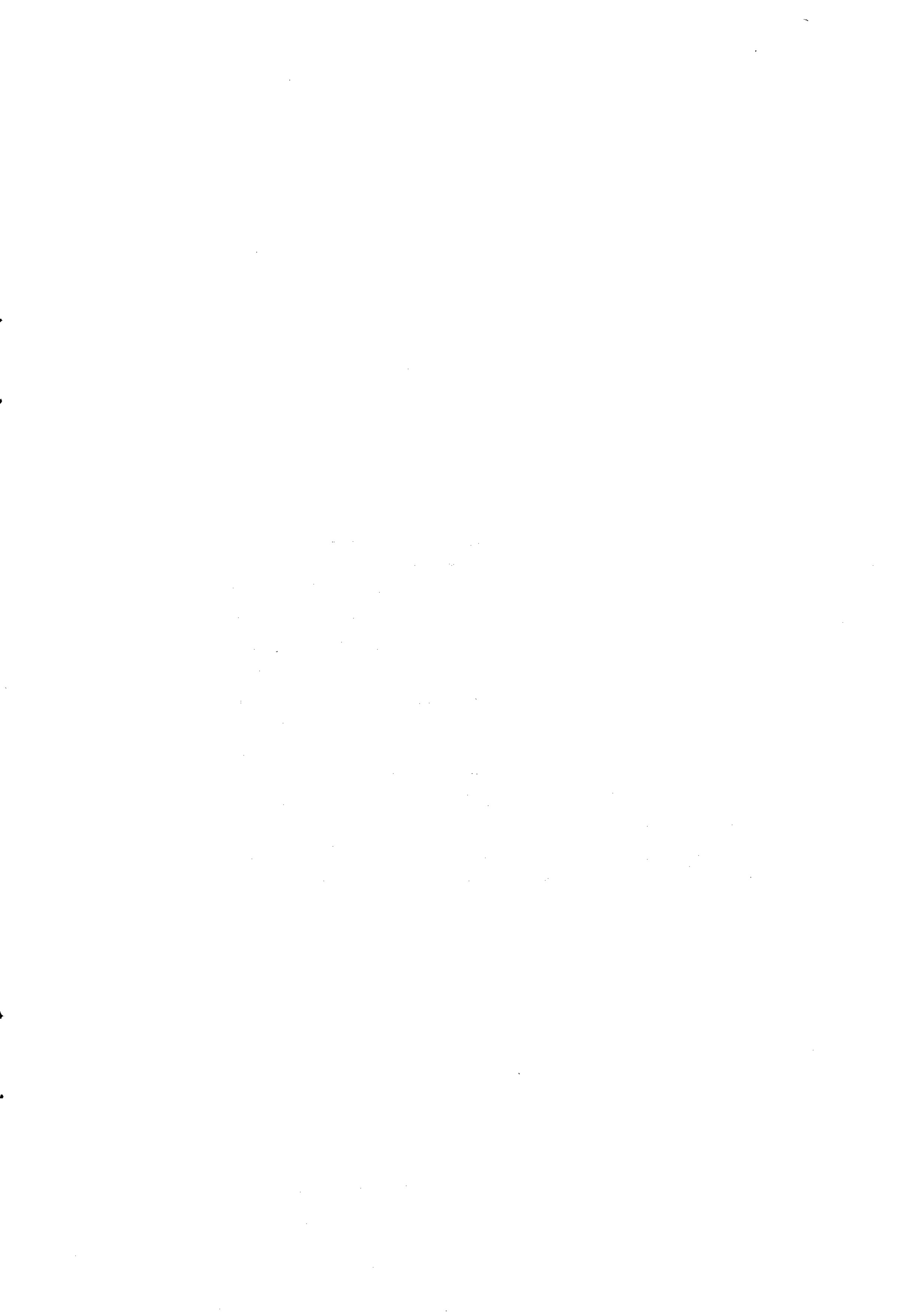
الحياة نبيلة .. بالحب !

□□ تجف الأرض .. تجف !

تتشقق عطشا ، ونداء ..

تتفلح الأرض ، والخطوات فوقها تدك العطش ..

تدك النداء ، وينبجس الظمأ كالنبع الذي ينوح !



الإهداء

إلى الإنسانة العظيمة بمواقفها معي

في لحظات العتمة، وفي وقفات الإرادة،

وفي ثواني الابتسام..

إلى التي بنت معي الأهم من عمري،

وحافظت على حراسة الابتسام فوق شفتي..

ما أمكنها.

إلى شريكة حياتي:

أهدي هذه الصبابة من روحي ومعايشتي!!

عبد الله

لا شيئ .. كل شيئ

■ أصحاب القلوب الكبيرة ..
يموتون بحزن بسيط !!

■■ الواحدة بعد منتصف الليل ..

تتعتق مدينة « جدة » داخل هذا السكون الدافىء ..

ينتصب الليل هذه اللحظة شمعة تسهر وحدها .. تقطر الظلال وتقطر الانفاس ، وتقطر خطوات تلتهم الدرب وتضيع في كثافة الظلال !

لا شيء .. هو كل شيء !!

سقطت هذه العبارة من بين شفتيه . لا .. بل من بين فكيه . كان يجذ أسنانه ثم يبصق أمامه بقرف .. يبصق كل الساعات التي طمرت انقاضا تحت هذه الساعة .. هذه اللحظة : الواحدة بعد منتصف الليل !

من حوله كانت العربات الفارهة ، وسيارات الأجرة تعدو ، وتفر بالليل ، وبالهدوء ، وبخطواته الرتيبة فوق طبقة الاسفلت التي انعكست عليها أضواء الليل فبدت كالآل !

ابتلع ابتسامة ساخرة .. وهمس :

– أنت ايتها الراحة... مثل طبقة الاسفلت فوق شوارع « جدة » تفترشين نفوسنا ، وتمر فوقك اشياؤنا راكضة .. ثم لا تلبث تلك الاشياء ان تهتز فوق نتوءاتك وتسقط او تتخلخل !

تشبيه سخيف ، وقاصر !

ـ أعرف ذلك .. لكني اقرع كل ليلة جدار الزمن ، فلا يأتيني صدى !

وصرخت في سمعه صفارة الحارس الليلي وارتجف .

ـ ها هي حالتي النفسية .. تماما كما طقس مدينة « جدة » .. يأتي شتاؤها كومضة الفلاش . بمجرد ان تهدأ نفسيتي وابحث لها عن الدفء .. يخترقها الصيف .. تتحول الى حرائق . ولفح مستمر من هجير قائظ !!

كل الأمثلة رديئة . ما أتعس الذين يبحثون لافكارهم عن امثلة !!

الشوارع خالية .. حتى الاضاءة فيها ناعسة .

وتطلع أمامه يحادث هذا الشارع الطويل الجميل .. شارع « المطار » . قبل أسبوع كان يفكر أن يذهب الى مكتب الخطوط ليشتري تذكرة .. يسافر بها إلى القاهرة . بعد اسبوعين سيقفل أدراج مكتبه ، ويودع زملاءه ليستمتع بشهر كامل !!

ـ هأ .. هأ .. هأ . قال اجازة .. قال !!

يا لقرارة البئر !!

سيذهب « المرتب » كله في الرحلة ، والشهر القادم لن يدفع ايجار الشقة ، وتقسيط السيارة . لعنة الله على كل ماركات السيارات .. لم تكمل العام عنده إلا وبدأت تخرم جيبه . وهو اما ذاهب الى شركة السيارة ، او عائد منها . وهذه الليلة بدون سيارة ، فهي في الورشة ، لكن المشي في هذا الوقت ممتع .. انه يسمع صوت نفسه . وقع اقدامه هذه هى متاعبه ، واحلامه ، وتحدياته ، وانفعالاته ، وراحته !

يوم السبت قالت له أمه : لقد تعبت من هذا البيت . انت تعمل إلى منتصف الليل وتعود تطلب عشاء ، وأخوك يصحو من أذان الفجر ويطلب إفطارا ليذهب الى المدرسة ، وأبوك مات من سنوات مرتاحا بالموت .. مخلفا لي كل العذاب ، وعليك ان تتزوج .. لتأتي لي بمن يساعدني في البيت ، أو على الأقل ليؤنسني !!

– تؤنسها ! .. ها .. ستحيلان البيت الى فريقين من فرق كرة القدم .. فأما أن أكون مع أمي ، او أكون مع زوجتى . واذا اتحد الفريقان فسيقومان بمباراة المنتخب !!

– بلاش وجع دماغ . البنت هنا تطلب تأميم زوجها ، وأهلها يطلبون شهر افلاسه بعد الزواج !

ياه .. الواحد يسرح بشكل سريع .. من الاجازة .. الى الزواج .. الى .. الى السيد المحترم رئيس الادارة .. يطلب منك ان تعمل حتى في البيت ، وفي نهاية الشهر يقدم فيك شكوى إلى رئيسه الأعلى !!
يا الله .. كل شيء .. هو لا شيء !!

حتى « رشا » .. نعم حتى الانثى التي أحبها تريد أن تختصر الزمان بالغضب !

ان الناس اليوم يختصرون الزمان بالغضب ، ولذلك ارتفعت نسبة الموت بالجلطة وبانسداد الشرايين . العلماء يقولون انه الغضب ، وأنا اقول لـ « رشا » لا تحبيني وأنت غاضبة .. لكنها تريد أن تختصر الزمان !

حتى « رشا » قالت لي أمس : أنت رجل لا مبالي . أنت تحبني عندما تراني ، وتنساني عندما أغيب عن رؤيتك . لقد أقفلت السماعة في وجهي بعد أن قالت :
– اثبت لي أنك لا تحب غيري لاعطيك كل حبي !

أثبت لها .. ها !!

ـ قلت لها : لا استطيع أن أثبت لك ماديا ، وبشكل ملموس كيف انني أحبك بجنون .. كذلك لا تستطيعين أنت أن تثبتي لي أنني أخونك لتبرير غيابك !

في الحب .. لا أثبات ، وانما احساس .
مرت ساعات النهار والليل ، و « رشا » تنتظر الاثبات ، وأنا أنتظر النفي !

كيف ننفي أحاسيسنا عنا .. كيف نشردها في اللامبالاة ، وفي الاسقاط ؟!

« رشا » كل شيء .. وهى تبحث عن اللاشيء !

والعمر كل شيء .. ونهدره في اللاشيء !
فكرت أن أتزوجها . هذا شيء صعب ، فكيف أحولها من حركة إلى « لزقة » ؟!

النساء يفكرن بجاذبيتهن .. اما الرجال فان افكارهم تتعطل عندما يفكر النساء !!

■ ■

الليل جذاب .. ما اروع ان تكون فيه وحدك لا مباليا !
لماذا نلغي بعض افكارنا ؟!
ليس لاننا استغنينا عنها ، أو لأننا فشلنا في تجسيدها . نلغيها لأنها تضيع في زحمة أفكار جديدة !

هذه نكته تعيسة . لكن أفكارنا أحيانا تبدو أكثر تعاسة . مثلا .. ماذا لو جاءت سيارة مسرعة تنهب الارض هذه اللحظة ، وطوتني بين عجلاتها ؟!

حادثة .. وما أكثر الذين تدهسهم أفكارهم فيكون ألمهم أو مصابهم أفدح من دهس السيارة ومن الموت !

انني أسير الآن .. وأفكاري تدهمني ، ..
واخرج لساني للصمت ، وللقمـــر ، وللأسفلـــت المـــكسر ، وللسيارات الفارهة المنطلقة بجنون .

لا فرق بين أن أخرج لها لساني وأنا أمشي ، أو أخرج لها لساني وأنا فوق « نقالة » الاسعاف .. والوجوه تتطلع إلي قائلة : مات تحت عجلات سيارة !

لكن عندي قضية هامة ..
أنني لا أفكر كيف أحيا .. بل كيف سأموت ؟!

هل أنا مختل الشعور ؟! .. أنني فقط مختل الجفنين .. إن أهدابي لا تنى عن الرقص ، وهكذا الناس عندما يتطلعون في انتظار المفاجأة ..

قضيتي هي المفاجأة !!
عمري : ثلاثون عاما .. وهي أعوام حافلة بالمفاجآت . مات أبي مفاجأة ، وتركت دراستي مفاجأة ، واشتغلت مفاجأة ، وأحببت « رشا » مفاجأة ، وعندما تنتهي ساعة من يومي .. أحس بعد انتهائها بمفاجأة .. بأن الساعة ذهبت وعملت فيها شيئا لا أدريه ، أو لا أريده أو لا انتظره .!

هذه خيابة النجابة !!
أردت ان أكون نجيبا .. فطارت النقطة من الحرف الثاني .. فاستمرت حياتي نحيبا . أحيانا ابكي لأنني ما بكيت خلال ساعات النهار واذا بكيت ضحكت لانني كنت أفكر في شيء .. هو لا شيء ، فبعد الدموع يهون المصاب !

وكل شيء .. هو لا شيء !!
هل أنا أحكي حياتي ؟!
ابدا .. انني احاول أن أخرج من بين زحام الناس ، وأناديكم قائلا :

ــ تعالوا .. لتشاهدوا معي ما أراه !
اكيد اننا نرى نفس الشيء بملايين العدسات وبألوان من الفهم !
رئيسي في العمل أعطيه الجريدة اليومية ، واشير له إلى خبر مكتوب فيها ، ويلتفت الي قائلا :
ــ وماذا يعني ؟! الاعتداءات الاسرائيلية ، الرسائل الملغومة ، الطائرات المختطفة . القنابل فوق لبنـــان . العــرب يعقــدون الاجتماعات . اليهود يقيمون مستعمرات جديدة نيكسون يراقص «باتي» ابتهاجا باعادة انتخابه . ما الجديد في الصحف ؟!

وأتقلص ، وأنزوي في ركن الغرفة أشعر بالسعادة .. لانني اكتشفت انسانا اخر مثلي لا مباليا !

أمي في البيت توسع حدقتي عينيها وتقول لي : بلاش تبذير ومسخرة . فلوسك طائرة في الصياغة ، والهدايا التي تقدمها لعروس المستقبل،روح السوق وشوف كم صار سعر السكر واشتر لنا ارزا قبل ان يرتفع سعره ، وهات معاك درزن صابون للغسيل ، وروح سدد ايجار الشقة . أنت ولد مفلوت على حل شعرك !

و « أخصرها » أقبلها فوق جبينها واربت على كتفيها ، وأذهب الى السوق لابتاع زجاجة رائحة أقدمها لــ « رشا » !

« رشا » لا تريد هدايا .. انها في كل مرة تقبلني فيها ، وتهمس في أذني بعد ــ ديالوج ــ كنت مع مين ، وعرفت مين ، وتقول :

ــ أنا اريدك أنت وحدك . اريد الانسان الذي يفكر في كل وقته ، ويحلم معى بالمستقبل،انت حتى الان لم تشتر قطعة ارض من اجل ان تبني عليها « فيلا » تملكها !

مسخرة حياة .. لا أروع منها ، ولا شيء يقرف مثلها !!

غدا سأشتري « درزن » صابون لامي !

غدا ــ أيضا ــ سأرى « رشا » رغم أنها اقفلت الخط في وجهى . لماذا نصدع رؤوسنا بالمناظرات ، والمقايسات !!

غدا يوم جديد اسمه : طز ! .. انه كباقي الايام تتأخر بنا وهى تتقدم !!

■ ■

هذا باب « الشقة » سأدخل فيه المفتاح بهدوء ، وأتسلل لئلا تصحو أمي ، وتسمعني الموشح المعتاد . فلا بد أنها نامت متعبة بعد ان قرأت « آية الكرسي » مائة مرة كعادتها كل ليلة !

غرفة أمي مضيئة .. ماذا حدث ؟!

هرولت فزعا .. أنتظر المفاجأة الاخيرة في نهاية هذا اليوم !

ــ أمي .. أمي .

ووجدتها تغط في نومها ، وبين اصابعها مسبحتها « الالفية » . لقد نامت قبل ان تطفيء النور !

وصعدت زفرة ارتياح . لا أريد أن تموت أمي .. حتى أستطيع أن أعود الى البيت كل ليلة . انها كل شيء .. في اللاشيء !

انها محاصرة بشتى الامراض .. لكنني أريدها حتى وهى تتألم . المهم الا يختفي صوتها ،

هل هذا هو كل شيء!!

انها تقول لي : اريدك أن تهتم بشيء واحد ولو مرة واحدة ، لاشعر أن لك هدفا . أن حياتك ذات معنى !

ما اطيبك يا أمي . هل ترضين أن تكوني معنى حياتي ؟!

أستعيد صوتها وهى تجادلني بابتسامة وقور :

ــ يا ولد .. طيب و « رشا » ؟!

رشا حياتي ، وأنت « معنى» حياتي !

وتقول لي : شوفوا الولد كيف يتكلم بخبث !

اطفأت نور الغرفة ، وتسللت الى الليل . لا أدري .. ما الذي جر خطواتي من جديد الى الشوارع المضيئة .. الساكنة ؟!

« رشا » تملأ صدري .. كأنها ضفاف تمدني بالنبض ..
أمي .. تحتل حدقتي .. كأنها بصر يهدى خطواتي ..
ما اروع أن نحب !

عندما نحب لا نبالي . كنت اقول هذا لـ « رشا » ، وكانت تفهم العبارة على انني لا ابالي بحبها !

وعندما نحب من لا يفهم ؟!

كانت تقول لي لا تشتمني !!

يكاد الصباح أن يبزغ . هذه ليلة بلا خاتمة انها غنية بكل افكاري هذه التي جرحتني .. انها بكل شيء مليئة في هذا العالم المتناهي في سباته .. في اللاشيء !

سيكون النوم ـ الآن ـ مطلبا غاليا .. بعد اربع ساعات سأذهب إلى العمل والا اقتطعوا من مرتبي في مقابل اللامبالاة !

سأغفو الآن قليلا . أن أمي لن تتركني انها توقظني قبل موعد العمل بنصف ساعة . تحت جفني عالم رحب من الاحلام ، وسوف اغازل احلامي حتى يأخذني النوم !

■ ■

باب غرفته يكاد يخلع .. ما هذا الطرق العنيف ؟!
انه صوت الولد العفريت الذاهب إلى المدرسة .. انه يناديه بفزع :

ــ أخي .. أخي افتح .. استيقظ !

وهب مذعورا يفتح الباب ..

ــ ما الذي حدث ؟!

ــ تعال بسرعة .. أنظر . لقد جئت اوقظ أمي لتعد لي افطاري فوجدتها لا تجيب .. أمنا ماتت .. ماتت !!

ماتت ؟؟!

بعد ساعة .. الطبيب يقول : ماتت بالسكته القلبية . كان قلبها كبيرا ، ولذلك ماتت .

اصحاب القلوب الكبيرة يموتون بحزن بسيط !!

هل تنتهى الاحلام هكذا ؟!

هل هذه بداية الحياة .. أم نهايتها ؟!

ماتت .. وكل شيء .. هو لا شيء!؟

ستكون الحياة حزنا بسيطا .. بسيطا !!







الإنسان .. الدلو

● إن البدايات لا تبدأ من
أسفل الانسان ، وانما من أعلاه !!



□□ نام الساعات الاخيرة من النهار ...
وصحا مع حلول المساء ..
كانت ليلة صيف .. وكل ما في نفسه
وما في احساسه ، وما في ذهنه قد
اصابه « الصيف » .. كل ما فيه يرشح ويخنقه !! ...

كانت ليلة صيف .. بلا بداية ، فالبدايات مفقودة في عمره .. متغربة في اكتشافاته . لقد ولدته أمه « سباعيا » فلم تكن ولادته بداية .. لان كل العائلة كانت تنتظر قدوم الجنين في الشهر التاسع .. كانوا يريدون بنتا وجاء ولدا . ويتوالى ضياع البدايات في حياته .. وفي رأسه ،واقتحموه من حوله ، وكل الناس تجمعوا في رأسه ، واقتحموا قلبه وهدموه !!

ولا أحد أمامه .. ولا المستقبل ، فهو لم يتحصل على شهادة تعطيه جواز المرور للمناصب الرفيعة ، والمجتمعات الكبيرة ، والفتاة التي تبني له بيتا ..

أمامه الآن فقط : منفضة السجاير .. وخيل اليه أن وجدانه قد سقط في المنفضة .. تحول عقبا ، ورمادا !!

لا احد يسأله .. ولا يجد احدا يجيبه ، او يجيب عليه ..
وأغفى قليلا .. ولكن هاجسا من داخله انتصب يسأله :
ــ من أنت ؟!

حاول أن يجيب . تلفت حواليه ، وزم شفتيه :

ــ لا لزوم لتعرف من أنا .. اذا كنت أنا لا أعرف !
ــ ولكنك تعرف وتهرب !!
ــ هل تصر أن أشق لك عقلي من منتصفه ، وأطعن صدري ؟!
ــ اذا فعلت ذلك فسوف ترتاح قليلا . انني جئت لاريحك !!
ــ تريحيني .. ايها المعتوه . ان اكثر ما يعذبنا هو ما في نفوسنا !!

ــ اذن تحدث ليبلغ بك التعب منتهاه .. أليس الالم العميق هو راحة العذاب ؟!

ــ انا نيرون .. لقد احرقت روما ، أحرقها في جنونى ، والسبب تريستا .

ــ من تريستا هذه ؟!
ــ اية امرأة تعشق مجنونا ، أو يحبها رجل مرهف وحساس جدا .

ــ ولكن ... ليس العذاب كله إمرأة !
ــ ولكن دائما تكون المرأة هى كل العذاب . هل تعرف تشارلز مايسون ؟ ..

انه قتل كل امرأة في شخص «شارون تيت» .. اعرف انه مريض بالقسوة .. ويعاني من عاهة الفقر في عواطفه . انه ابن الحالة الجنسية ، وله شعار مضحك ابله يقوله : يا نساء العالم .. امتنعن عن اضعاف الرجال !

ـ ولكن الحياة .. ليست كلها جنس !

ـ الحياة تتحرك ، وتمشي وتبدأ ، وتنتهى ... والجنس يربط كل ذلك .

ـ هذا خطأ . الجنس يكون الاستلقاء المؤقت كفواصل للراحة بعد التعب . هناك حياتك .. أمالك .. مستقبلك .. حقائقك !

ـ هذه فلسفة الرجل العنين ، والمرأة الباردة .. ألا تشاهد ما يجري في العالم ؟! .. تصور ما الذي يمكن ان تكون فيه صورة الحياة لو كان الرجل وحده او المرأة وحدها ؟!

ـ ان البدايات لا تبدأ من اسفل الانسان ، وانما من أعلاه .. من رأسه الذي يفكر ، ومن قلبه الذي يحب ، ولكنك رجل غريب !

ـ صدقت .. انني اتأمل هذا العالم واشعر انني فيه رجل غريب .. انني فأر صغير في خزينة من الكريستال .

ـ انت تشتم نفسك .

ـ لا .. انني اشتم الكريستال الزائف .. فكل مغريات الحياة مثيرة ومغرية من الخارج ، ولكنها ليست اصيلة .. انها هشة .. زينة . ان خيال الانسان قد تسوس .. ولكنه يمزح ، ويطلق النكتة ، ويطوح بساقيه مقهقها كما معتوه !

ـ هل تعرف الذي قتل طفلة لم تتخط العامين ؟!

ـ انه شخص لم ينجب اطفالا .. انه ما زال الطفل الذي لم يخرج من سذاجة الرغبة واحتقارها ايضا !!

ـ هل اصغيت الى فنان يقف وهو يعزف على آلته الموسيقية وبكيت ؟!

ـ كان يقف في شارع طويل ، وحوله تجمع النسوة .. ولكنه عندما توقف عن العزف قذفنه بالاحذية ، وقال الرجال : هذا ناشيء !!

ـ هل كان يشحذ نقودا ؟!

ـ ابدا .. كان يشحذ عاطفة ، ولقد حزن عندما علم انها لا تباع ، وانما تعطى ، وان الناس يأخذون المتعة منك ويقذفونك بالطماطم وينسونك للابد !

ـ ومن طعنك .. لتقول ذلك ؟!

ـ انه خيالي . لقد جاملته ، فالتف من ورائي وطعنني ، ولكني لم امت بعد . الم اقل لك ان الحياة في المنتصف فقط !!

ـ وما الحياة بعد طعنتك هذه ؟!

ـ مائدة مليئة بالطعام الطازج والبارد .. وقد منعنى الطبيب ان اتناول الطازج منها !

ـ وما هو تخصص طبيبك ؟!

ـ زوجة !! قالت لى ذات مساء : خذ « المكوى » وأصلحها . كانت هوايتها ان تكوى ملابسي النظيفة ، وسلوكي النظيف أيضا ..

وتدعني وحدى اكوى ملابسي المتسخة ، وتراكماتي ايضا !!

ـ هل تشاهد افلام السينما ؟!

ـ نادرا .. فنحن احيانا نرغب ان نجسد الحياة في شيء . ان جزءا واحدا هو كل الاجزاء ؟!

ـ وبماذا اقتنعت ؟!

ـ ان لا اقتنع بشيء ؟!

ـ وكيف تملأ حياتك ؟!

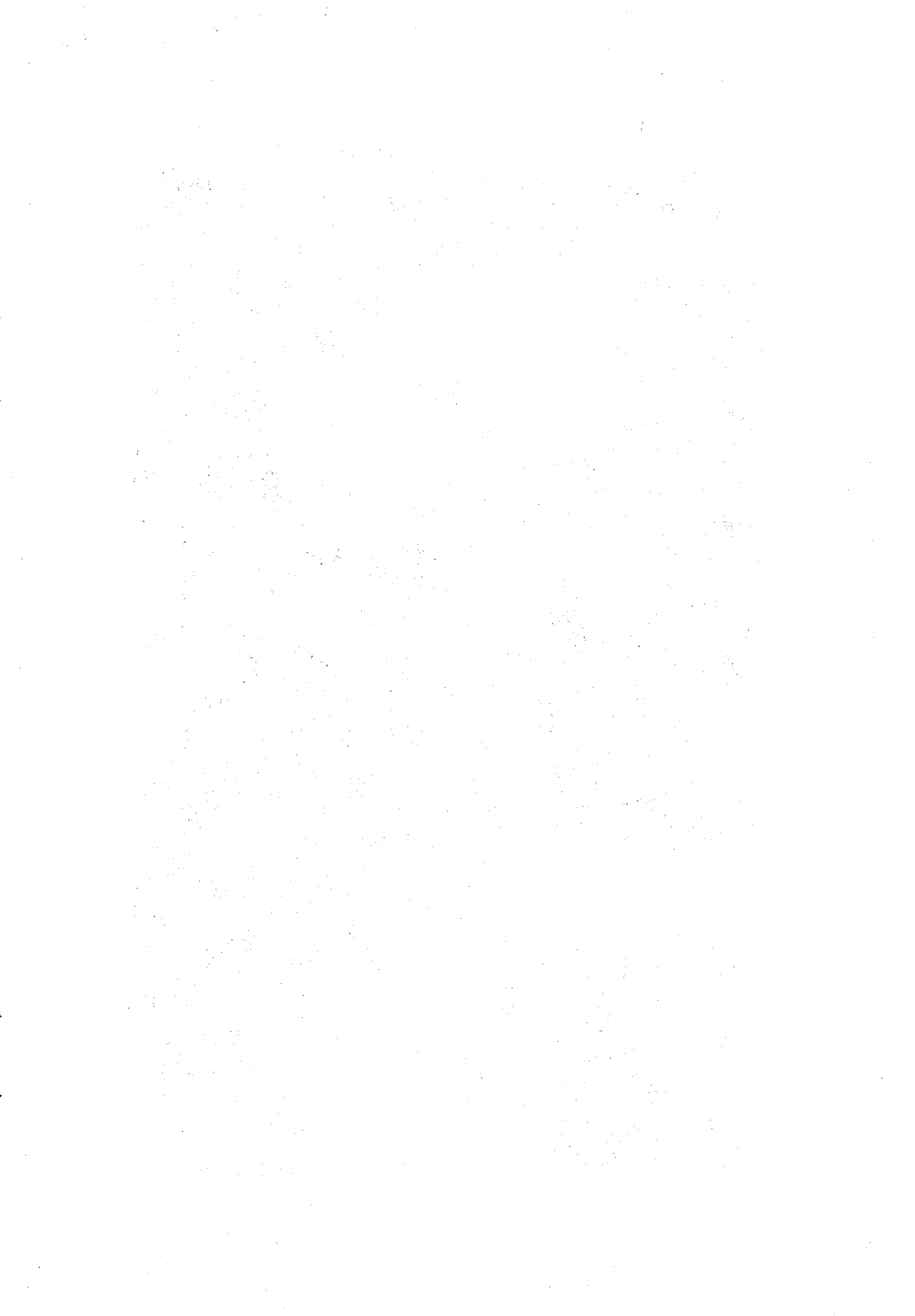
ـ حياتي ؟! .. انها كالدلو .. أمتلىء وأفرغ محتواى في ارض غريبة وبعيدة ، وأعود الى بئري أتدلى

ـ الى اللقاء

ـ ان امكن !!

الإجازة

● نحن ننشغل بالتفكير في الراحة ..
ننشغل بالبسمة ، وبالخدعة المقبولة ..
ونعجز أن نقلد العجائز في النوم المبكر !!



ـ ١ ـ

■■ جوال .. تأخذه الطرقـات .. يبعـده الزحـام عن « التفنيط » .

تساقطي ـ اذن ـ ايتها الاقفال المصنوعة من التعب . وخرس الصمت . والوحدة !

جوال .. الليل مليء بالناس .. مزدحم بالاضواء . ولكن هذا الامتلاء .. هذا الزحام في الصدور والطنين الداخلي للنفس . ترتمى نهاية الليل عند ابتدائه .

يزم الشفتين .. يصفر . يضغط على البنزين ، فكل هذا الازدحام في الشوارع هو سيارات .. صخب .. قلق ، ولكن النفوس فارغة .
تمتد اصابع يده الى راديو السيارة .. يعجبه صوت المغنية الفرنسية التي لا يعرف اسمها .. يردد مع صوتها اغنية قصيرة تقول :

ـ « لا ندري متى نغني ..
لاننا عندما نشعر بالسعادة لا نسأل » !!
اليوم .. هو اول ايام الاجازة .

هكذا يفعل الناس حينما يؤجلون اعمالهم ، ويبتعدون عن كدهم ، ويهربون الى الراحة من تعب يومي متواصل !

– لماذا يحتاج المرء دائما الى فترة من الكسل .. من الهروب والاختباء ؟! الصدى لا يجيب ، ولكنه يحدث نفسه ، ويبتسم بشفاه البلهاء .. سأم ...

– ايه ... الى اين ؟!

ما زال يحادث نفسه كالمعتوه :
– وهل كل هؤلاء الذين يمشون من حولى وامامى وخلفى عقلاء .. سعداء ؟!

ما زال يتلفت ، وقدمه تضغط على البنزين ..

– لا بأس .. كل الناس مثلى !!
انعطف بسيارته الى عدة ازقة في « العمارية » .. بعد ان توقف امام « فترينات » الشاورما .

واشترى سندوتشين !
– انني جائع . المعدة بسيط جوعها أو هووووه . والعقل الجائع ، والقلب الجائع ؟! يا ولد كل شيىء الان في اجازة !

امام بيت قديم من دور واحد توقف . هذه « دار ! » سينما في الهواء الطلق . انه سيشاهد فيلمين الان بعشرين ريالا . قبل عام كان يدفع عشرة ريالات فقط . معليش .. كل شيىء ارتفع سعره ، فلا اقل من ان يرتفع سعر المتعة .

دخل الى « حوش » كبير رصت فيه حتى اخره الكراسي الحديد الصدئة ..

الوان من الناس : بنطلون على ثوب .. على فوطه .. على حذاء زنوبة . صوت « طرقعة » الفصفص .. فلا بد ان يعمل الفم .. كل هؤلاء جاءوا لرؤية امرأة .. لا تهمهم القصة .. لا يهمهم الحوار في

الفيلم . المتعة اصبحت رخيصة يا خلق الله !
ـ سيجارة ؟!
ـ ها ؟! .. لا متشكر .. انني لا أدخن .
تنبه الى هذا الصوت بجانبه . صاحبه رجل تخطى الخمسين ، ولكنه يبحث عن المتعة المتحركة فوق الجدار !
ـ الاطباء يقولون : حافظوا على صحتكم لتطول اعماركم . الطب يقول : ان التدخين يسبب السرطان . يا سيدي .. الاعمار بيد الله ، والا ايه يا اخ ؟!
ـ ها !! .. صحيح صحيح .
يمد يده الى جاره وهو يبتسم بشفاه البلهاء :
ـ طيب . حيث كده هات سيجارة !
ـ ولكنك لا تدخن كما تقول ؟!
ـ واحدة لا تقتل . في كل شيء يا أخي تأكد ان واحدة لا تقتل . سيجارة واحدة لا تقتل . امرأة واحدة لا تقتل . تجربة واحدة لا تقتل . كحة واحدة لا تقتل !
ـ يبدو انك سعيد ؟!
ـ السعادة نسبية يا اخ .
ـ نسبية يعني ايه ؟!
ـ آه .. نسبيه بنت ام نسبية !
ـ لازم دا اسم بطلة الفيلم ؟!
ـ لا .. هات سيجارة .
ـ هادى السيجارة من النوع الانجليزي الفاخر .
ـ يمكن علشان كده باردة . سيجارة لها طعم التبغ ورائحته ولونه ، ولكنها مصنوعة من ورق يسمى « السيلولوز » ويمكن للمدمن عليها ان يستهلك منها الكثير دون ان تضر بصحته .

ـ لكن السجائر الانجليزي حارة .. اللى تقول عليها دى « الكنت » !

ـ شفت انك مدمن . علم ما شاء الله .. علم !
« يهمس لنفسه : ليت هذا العلم في شيىء مهم » !!

ـ ماذا قلت ؟!
ـ ها .. لا ابدا .. باقول الدنيا حر ، وأتأخروا في عرض الفيلم الاول .

صمت جديد يلفهما رغم الضجيج الذي يملأ «الحوش» .. اطفئت الانوار ، وبدأ عرض مقدمة الفيلم ..

ضاعت حلقات الدخان في مساحة عريضة غير مرئية . فضاعت نظراته في مشاهد الفيلم .

ـ ٢ ـ

كأنه استيقظ .. كان في جولة سياحية لمدينة هونولولو . المرأة هى المرأة . والذي يتغير هو الفستان الموضة .. حتى ولو كانت المرأة تتحرك فوق الجدار !!

الساعة بلغت الثانية بعد منتصف الليل . يقترب بسيارته من الشاطىء . لو كانت عنده زوجة واولاد لما استمر في هذه « الصرمحة » ، ولكن .. لو كان «بعلا » لما استمتع بهذه الحرية !
قدماه تمضيان به فوق رصيف الشاطىء ..

الصمت يلف الليل والمكان والسماء .. لا احد معه ، ولا احد له .. وكل الحياة في صدره .

نحن ننشغل بالتفكير في الراحة . ننشغل بالبسمة ، والخدعة المقبولة ، ونعجز أن نقلد العجائز في النوم المبكر !

سيارة صغيرة تطير فوق الاسفلت .. كفراتها « تفحــط » الطريق ..

ــ يا ساتر .. الى اين يذهب هذا المخلوق بكل هذه السرعة ؟!
حتى عندما يبحث الناس عن الراحة .. يرتضون ويضيعون . ضاع في الظلام والصمت .

الدنيا بدأت تبرد . رغم الرطوبة الشديدة هو يشعر بالارتياح ..

دخل سيارته واقفل الزجاج ..
انه يجرب ان ينام وهو جالس .. تماما كما جرب ان ينظر الى المرأة ، وهى صورة متحركة على الجدار !!

ــ ٣ ــ

خرج من المطعم . الشمس حارة والناس يهربون الى بيوتهم للاستمتاع بالقيلولة .

فراغ يا احمد يا ولد عبد الصمد .. فراغ !!
اطبقت اصابع يده على الجريدة . حرب بيروت لم تهدأ . الفتنة كالنار في الهشيم . العالم العربي هو الهشيم .. من يشعل النار ؟!

ــ يا شيخ .. خلاص سئمنا وانا مالى ؟!
يقرأ : الموت حصد كل شيء . الالوان اتحدت في اللون الاحمر القاني .. قانى !

فتاة لبنانية .. الموت حصد اسرتها كلها في « الشياح » .. ذهبت تجري تبحث عن حبيبها . خطيبها الذي كانت ستزف اليه قبل عام ونصف .. يوم اشتعلت الحرب الاهلية . انه الان يضع حول اصبعه بقايا رصاصة بدلا من الدبلة . الان لم تجده .. لقد قتل !
واصلت ركضها .. انضمت الى المقاتلين .. تحولت الى فدائية . لم يبق شيء ابدا .. ابدا .

– يا شيخ .. انا في اجازة سآخذ فناجانا من القهوة !
بقى وحده . جلس يحدق في حفافى الفنجان . تذكر . قام الى جهاز التسجيل واداره :

– و « طريقك يا ولدي مسدود مسدود » !! .. هذا «عبدليم» بيغني !

– طيب ما انا عارف . عمى يرفض ان يزوجني « هالة » ابنته لانه ليس عندي فيللا امتلكها ، ليس عندي سوى عشرة الاف ، وهو يريد ان تنام ابنته في غرفة نوم قيمتها ثلاثون الفا !! يغور الزواج ، وعمى ، وهالة ، وكمان تغور غرفة النوم !

« بصرت ونجمت كثيرا ..
واميرة قلبك يا ولدي في قصر مرصود .. مرصود » !!

قليلا من « اللمة » في عينيه في صدره ، او حتى في يديه . اندلقت قطرات من القهوة على بيجامته .

– « انت يا ولد فاشل .. ما انت قادر تلم لك قرش .. كيف ازوجك بنتي » ؟!

–يغور الزواج يا عمي ..ما بدى بنتك .. قرص عليها العيش . تغور قارئة الفنجان . ودى نومة .. القيلولة حلوة !!

يحدق في الجدار :
– المرأة هى المرأة .. سواء كانت تمشي ، او فوق سرير .. او على الجدار !!

– ٤ –

الاجازة تسكع .. فرجة على الناس ، وفرجة الناس عليك ..
يفكر .. ما الذي يفعله في الاجازة . يفكر ان يذهب الى « اللونابار » !

ــ عيب يا ولد تطلع « الدويخة » وتنزل ويضحكوا الناس عليك .
طيب فين اروح .. فين ؟!

هذا « استريو » . الوان . شيء احمر ، واصفر ، وموف ، وصراخ توم جونز مع شكوكو .. مع وردة .. مع محمد عبده وطلال ..

ــ ندخل يا ولد .. وراح نخسر ايه ؟ .. يمكن كم ريال قيمة شريط .. اهو شيء جديد !

ــ تؤمر .. تحب الاغاني الجديدة لطلال .. عندنا شريط لاغاني المطربة سعاد توفيق !

قال له البائع في الاستريو هذه الدعاية !

ــ هس !
ــ حاضر .. بس والله صوتها غريب وحلو !
ــ تطلع مين دى سعاد توفيق مطربة ...!!
ــ كله يا استاذ .. بس انت تطلب .
ــ أبغي شريط مسجل عليه .. مسجل عليه ولا شيء !
ــ آه .. انت دمك خفيف تقصد شريط خام ؟!

ــ هوا بقى شيء خام يا اخ ؟!

ــ طيب طلبك ايه .. والا انت طفشان بس ؟!

ــ لا .. عندي اجازة . ابغي شريط لموسيقى قديمة اسمها : شهرزاد .. لكارساكوف !

ــ كارسا ايه .. مين دا ؟!

ــ دا كان فاتح استريو .. انت ما تعرف كار ساكوف ؟ .. دا يا سيدي منلوجس !

– ها .. لا متأسفين . عندنا شريط مسجل عليـــه مدرسة المشاغبين !

– يعني هو فضل احد ما هو مشاغب ؟ .. سلامو عليكم !

– ٥ –

الساعة الان الحادية عشرة والنصف . موجز انباء التليفزيون
– خلاص .. انتهت السهرة . ثم تنام !

قام يتجول في الشقة الصغيرة . علبة سردين ملقاة في ركن الغرفة . جريدة فيها بقايا خبز . ثوب متسخ ومهمل فوق السرير .

قذف بالثوب الى الارض .. امسك بديوان شعر قديم اشتراه ذات يوم من بيروت قبل عامين .. انه لم يفكر في شرائه .. لكن « سعاد » الفتاة التي تعرف عليها هناك نصحته ان يشتري هذا الديوان .

تحولت « سعاد » الى فتاة جدار .. مجرد صورة مرسومة في ذهنه .. ذهنه هو الجدار !

– من سنتين يا ولد يا احمد ولم تقرأ هذا الكتاب .. خيابة ايه دى ؟!

امسك الديوان يقلبه . اسمه : معزوفة لدرويش متجـول .. يضحك :

– والله ما درويش الا انا . نشوف الدرويش المتجول .. صحيح متجول زى حضرتي ؟!

يستعرض الصفحات . يتوقف قليلا وهو يقرأ بصوت مرتفع :
– « فانا جسد .. حجر شيء عبر الشارع » .
جزر غرقى في قاع البحر

حريق في الزمن الضائع » !!

اخرج لسانه . اغمض عينيه والكتاب على وجْهه .. يريد ان يفعل كما العجائز . يريد ان يحلم بصور مرت بالامس .

الامس ، واليوم ، وغدا .. الشبه واحد .. لا شيء يتغير !



الصَّدا

■ إلى انثى ما زالت تذاكر عواطفها !



- ١ -

■■ أحيانا تود أن تغمض صوتها .. تحسب أن رؤيتها في صوتها !

إنها تبدأ الكلام ...

بداياتها مغرية .. ليندفع المصغى اليها فيتكلم ..

صوتها .. نافورة أنوثة ..

هذه اللحظة تصمت فجأة ، وتترك المستمع اليها يتكلم !

تدور مع نبرة الصوت .. تطوف حول كل الصور في خيالها ..

حول كل الاماني التي تحلم بها وتفكر .. والمصغى اليها ما زال يتكلم !

ما احلى الصمت فجأة في اذن من تكلمه .. لحظتها اما ان يظن بك مللا ورفضا لحديثه . اما ان يجذب شفته السفلى الى منحدر ، ويثق ان حديثه لامس هوى ووقعا . تلك طريقتها في الكلام ، وفي الاصغاء .. كأنها تحاصر كل صورها وامانيها وتخفيها عن الناس لئلا يكتشفوا ما في داخلها !!

ولكن .. ما الذي يكون في داخلها ؟!!

طرقات خفيفة على باب غرفتها . ونهضت من فوق سريرها تفتح الباب .

هذا ابوها يسد فتحة الباب .. طويلا عريضا .. هادىء القسمات .. لا يفقد ابتسامته امامها ابدا مهما كان رأيه فيها :

ـ ما زلت تذاكرين ؟!
ـ ابدا .. خلصت مذاكرة من ساعة !

ـ الوقت بعد منتصف الليل .. الا ترغبين في النوم ؟! وراءك يوم مبكر للصحو ، والدراسة !

ـ ما الفرق ؟! المهم ان لا نفقد حيوية اجسامنا لتكون قادرة على الحركة ، ونكون نحن قادرين على الانتباه !

ـ عدنا لآرائك المتوترة ؟. احيانا اراك كعجوز شاخت كل اشيائها ، واحيانا اراك كطفلة تلهو لتحطم كل شيء !

ـ الهواء بارد !!
ـ ويش هو ؟!
ـ اصابعنا تجرح وجوهنا احيانا !
ـ لم افهم ؟!

ـ الليلة وضعت كفي داخل حذائي وتقوست ، ومشيت اذرع هذه الغرفة . يداي داخل الحذاء ، ورجلاي عاريتان . منظر اضحكني . لقد اردت ان افعل شيئا جديدا خلف هذه الجدارن !!

وضع يده على جبينها يتحسسه . قال بعد صمت قصير :
ـ عسى ما خلاف ؟!
ضحكت بصوت مرتفع ، ثم بترت ضحكتها عندما تذكرت ان الذي يقف امامها هو والدها . قالت ورأسها منخفض :

ـ صحتي جيدة . فقط .. انت عودتني ان لا اتكلف معك يا ابي .. انني امزح . ها ؟!

تطلع الى وجهها .. حدق فيها وهى نظرات واقفة على وجه ابيها . وفجأة انفجرا بالضحك ، وضمها الى صدره ، وقبلها على جبينها ، وبصوته الاجش قال :

ـ نامي .. بكره امتحان . اتركي السهر ، وها الافكار اللي ما ادري وش لونها !!

واقفلت الباب من الداخل . المرآة امامها .. وقفت ترى وجهها .. قامتها الطويلة . ستبتسم هكذا . ضحكتها جنان . ملامح وجهها يعني .. هيه .. مقبولة . ليست وحشـــة .. هأ . هأ . تتذكر زميلتها في الفصل .. قالت ان وزنها تسعون ، والحقيقة انها اخفت عشرة اخرى ، مسكينة ، لكن دمها خفيف .. العام الماضي جاءها عريس ولكنها رفضت . قالت انها ستكمل دراستها.لا بد انها خائفة من النتيجة عندما يراها !!

ـ ما هذا السخف ؟! انا مالي والناس . يمكن البنت حظها حلو . الحظ ليس في الفتنة والجمال المنظور وانما في .. في ايه ؟! الحظ في الحظ .. !

ـ ٢ ـ

تبتسم بذهول .. الليل يسقط في الصمت . ما احلى الصمت .. انه حديث طويل لا ينتهى . لا يخرمه الملل . ساعة كاملة وهى تسافر في رحلة صمت . تحب ان تخلو الى نفسها دائما .. كل البشر ـ لحظتها ـ يمرون من امامها .. كل الوجوه التي اصطدمت بها ، والتي لمحتها ، والتي حدقت فيها ، والتي تتخيلها والتي صامت عليها .. زحام مرهق . الانسان يبحث عن وجهه منعكسا على وجه اخر ... وجه واحد من كل هذه الوجوه . هذه المرآة في غرفتها سخيفة .. انها تعكس لها وجها لا تعرفه .. لا تعطيها وجهها . وجهها تراه على وجه اخر !!

البحث مضني ، وغير مضمون !!
الهواء بارد رغم ان النافذة مغلقة وبوادر الصيف تلوح . بارد .. بارد !

ـ من هو ؟!
ـ ذلك السخيف . كل كلماته فقط هى : انت حلوة .. جميلة .. فتنة يقظى !

يقول الشعر بلهجة سمجة . المرأة يغرها الثناء . تاريخ قديم ، وكلمة مهشمة لم يعد لها وقع . المرأة اليوم تنظر الى المستقبل .. كيف تتعلم .. كيف تكبر مفاهيمها .. الخروج من التفاهة الى الهدف .

مرة قال لها :
ـ والرجل .. ألا يبقى في النهاية هو مطمع المرأة . ومحطتها الاخيرة ؟!

ـ صحيح ، ولكن بعد الاختيار المركز !!

الهواء بارد ، والليل يزحف فيسرق الزمن . لا .. نحن الذين نسرق الزمن . اللحظة التي نشعر فيها هى الزمن . وهذه اللحظة مسروقة .. لانها صور وليست شيئا !!

ـ قالت لأبيها : بعد الشهادة سأتخصص في الأدب !
ـ قال لها : آداب ؟! هذا يا بنتي ما يأكل عيش . الطب . الصيدلة . التدريس .
ـ قالت : الآداب . احب الانجليزي وسأدرسه !
ـ قال : الانجليزي تاخذينه في الطب . ترى فلوسك كثيرة اذا تخرجت وفتحت عيادة . البلد تحتاج لطبيبات .

ضربت رأسها بالوسادة . انها تعلم ان (مجموعها) كان لا يؤهلها لذلك .. لو انه يريدها طبيبة .. ما كان وافق في العام الماضي على زواجها . ما اتعس تلك الايام . جاءها بشاب يحمل شهادة جامعية .. تخرج في نفس العام ، والتحق بوظيفة . ذلك الابله .. ابتسامته بلهاء . كلامه كالصمغ . كلما قالت له كلمة .. التفت اليها وقال :

- الضّاهْ .. كلامك حلو !!
أخنف !!

حتى افكاره مصابة بـ (الخنفة) .. عندما يتكلم يهتز كله .. كالسيارة الباردة التي تنتفض وهي تدار !

يا لله .. ما اتعس امرأة تحلم بمثل هذا الطراز من الرجال . من كلامه تتذكر وتقهقه في غرفتها بجنون : انا حطوني في المرتبة الدابعة - يقصد الرابعة ! - رئيس قسم . وعندي (سيانه) اشتديت لها مكيف بمائتين نيال - اصل جده حن - يقصد حر ! - يا سلام عنا لندن .. البراد هناك لذيذ !!

- جاله القرف . مشروع بني آدم توقف نموه الحسي !!
الليل بطيء . نسيت هذه الحكاية . طوال عام كامل ، منذ ان رفضت الاقتران بهذا الابله ! انها تتذكرها عندما ترغب في الضحك . حتى الضحك قيصري . لا بد ان تفتح صدرها وتزغزغه لتضحك !!

ما الذي في داخلها ؟!
صمت .. اسطوانة تدور بلا صوت .. ولا تتوقف .
ينتظرن .. كل البنات ينتظرن العريس !!

- قالت لها امها قبل اسبوع !!

كيف تتزوج .. لا تريد الان . الان هذه الكلمات تقرع رأسها : (انك لا تستطيع ابدا ان ترى الشيء ذاته بل صورته فقط . والصورة ليست هى الشيء) !!

الساعة الان الثانية بعد منتصف الليل . غدا .. تقف (الابلا) وسط الفصل .. تشير اليها قائلة : .. انت .. كيف تجرين تجربة لاثبات ان ثاني اكسيد الكربون ....

بقية السؤال لم تصل الى سمعها . اذناها ليست مثبتة في رأسها . انها تحتاج الى ثاني اكسيد الكربون في عقلها . افكارها تختنق . صورها تترنح !. ستسمع تهزيئا من (الابلا) و .. ستبتلعه !!

ـ ٤ ـ

ـ ماذا قلت يوم امس ؟. اعد تلك الكلمات الغاضبة !!
ـ عندما اتكلم تصمتين فجأة .. اضطرب . اشعر ان كلماتي لزجة وانك تصدينها لئلا اواصل الكلام . اكتشف بعد ذلك انها غزيرة في داخلك !!

ـ كنت اسخر منك . اتعمدان اغضبك .. تبدو مضحكا هكذا !!
ـ لانني اقول شيئا لا يعجبك ، او لانني اسمعك كلاما يخيفك فتهربين منه ؟!

ـ طابور من (الاحصنة) انت .. تنطلق اسئلتك فلا ارى الا غبارا كثيفا !
ـ انا لست عاصفة !

ـ لم اقل هذا . انت صعب .. تجعل لكل كلمة تفسيرا .

ـ لاني اريد وضوحك . ان تكوني معي الطريق ، والمعنى ، والاستراحة والانثى !

ـ رجعنا للشعر ؟! الله هاالله .. شوى وتجمح !
ـ العثور على انثى نافذة .. مضني جدا !
ـ وتشتمني ايضا !!
ـ قصدت ذلك .. لتتخلصي من الدوائر الحلزونية !
ـ اسكت .. التيار في داخلي مجنون !
ـ تخافين ان يتحطم فيك كبرياؤك ؟!

ـ العاطفة لا تعترف بالكبرياء ، ولكني انسحب منك لئلا تضيعني !

ـ انت ضائعة عندما تكونين بعاطفة معقدة .. انت تهربين من نفسك !!

ـ اسكت قلت لك . هناك فرق بين الانسحاب وبين الهروب !
ـ الهروب معناه انني استوليت على كل أشيائك !
ـ تصبح على خير . هذا انسحاب لاعودة بعده !

ـ ٥ ـ

رفعت رأسها نحو النافذة . غابت رؤيتها في سواد الليل . كل ما في رأسها ، وصدرها يتشابك ، ثم ... (يسقط في الظل) . انها تكره ان تعطي لاشيائها ظلالا كثيفة . ما الذي جعلها تستعيد ذلك الحوار ؟! قالت رأيها في تلك الليلة : انه رجل دسم .. رؤيته جيدة ، وفهمه رائع ، لكنه مراوغ ومغرور . لا .. بل انه احيانا سخيف لا يعرف ما يقول . يتلجلج ، يضطرب ، كأنه لا يقيم وزنا لشيء ، او لا يعرف شيئا !!

مضى يومان .. فيهما كانت تهبط حتى تشدب كل افكارها ، وتضعف عواطفها . انها تنغمس في التبريرات الدبقة . لم يعد صوته اليها .. قالت : (ينقلع !) الأرادة اقوى .! انها لا تحب المراوغة من الاخرين . المراوغة منها امتع !

(من ثلاث ايام ماجاني خبر) . تردد هذه الاغنية وتبتسم بتعاسة . صارت رائحة الليل رطوبة . صارت الكلمات حبل مشنقة . اليوم جاءت اليها زميلتها . ما زال وزنها تسعين !! زميلتها سعيدة .. تضحك بمرح . سألتها :

– وش صار .. ليه مزغوده ؟!
– خلاص .. انتهى زمن الدراسة والمذاكرة ، والغلب الازلي . الحياة جديدة . الناس كلهم جدد !

– كيف ؟! سلامة عقلك !
– قولى مبروك !!
– ها .. ها .. ما هو معقول ؟!
– وش تقصدي ؟!

– ها .. لا ابدا . اقصد انه بدري . وين اصرارك على الدراسة ، وسخريتك من الزواج ؟!
– نصيب .. عقبالك !!
– ومين السعيد ؟!
– اللى خطبني !!

عيناها بعيدتان .. تبعثرت كل الصور . اللعنة على الفلسفة . وقع اقدام في رأسها . الطريق موحش . الهواء بارد رغم حرارة الشمس ودخول الصيف . طابور من الاحصنة كلماته . لأ .. كلماتها هى . الصدأ .. الصدأ . اصابعنا تجرح وجوهنا احيانا . (احياناأراك كطفلة تلهو لتحطم كل شيء) : كلمة ابيها . العاطفة لا تعترف بالكبرياء .. انت مراوغة : كلماته حينما يجمح !!

الصدأ .. نعم الصدأ لا تفسير له .
امسكت الكتاب واخذت تذاكر : كيف تجرين تجربة لاثبات ان ثاني اكسيد الكربون ......





أرملة الحب

□ مطلوب منا أن نتصافح بظهورنا ، ويغيب كل واحد في مفترق يوغل فيه مدى حياته .. ولا مناص !!



□□ كانت وقفة شديدة الوقع في عمره .. لا يدري هل كان هو الذي صنعها ، ام انه انسان قد تحول الشعور فيه الى صناعة تعطيه المتعة المؤقتة ، وترسب فيه الجرح . وتأخذه الى مسافات غريقة في المجهول ؟!

كان يتخطى السابعة والثلاثين بأيام ، وكان هذا العمر قد انمحى وكأنه قد ولد قبل ايام فقط ولكن بلا هوية وبلا عنوان .. فاذا هذه الايام القصيرة هى عمره كله . او انها الوجود الذي طلع وردة من بين الرمال ، أو انه الجرح الذي يغذ الى النسيان باربعة ارجل .

ومن المستحيل أن يتقهقر الزمن .. ولكن من المؤكد ان يترسب في الاعماق ذكرى وحنينا .. ذكرى الم او حنين فقد !

إنه الآن يحمل رأسه المجوف بين راحتيه وتطفر الدموع من عينيه بلا لمعان .. زوجته الجديدة ذات الشباب الطفولي تتنقل امامه من غرفة الى اخرى داخل هذه الشقة التي ضاقت باشجانه وذكر ألمه ..

التفتت نحوه وهى تنحني على الطاولة وتمسح طفاية السجائر الكرستال .. رفعت حاجبها مندهشة تسأله :

ـ هل تشعر بتعب .. هل تعاني من صداع .. هل اعطيك مسكنا لرأسك ؟!

انه لا يطيق ان يجيبها ..
هل هذا معقول ؟.. انها ما زالت عروسا لم تخرج بعد من شهر العسل !

ورفع رأسه ورآها بجانبه تتأمله باستفهام .. ثم سمعها تسأله ثانية :

ـ هل انت متورط في مشكلة .. ماذا تحس .. ماذا بك .. تكلم ؟
في عينيه دمعة بلا لمعان .. يتأمل وجهها الصغير .. يكاد يلمس عنفوان شبابها في قسمات وجهها ، وبصوت هامس موجع .. قال لها :

ـ اصدقيني .. هل ابدو في نظرك عجوزا .. مهدما ؟!
فغرت الفاه دهشة .

السؤال مفاجىء لكل ما رضيت به فيه ومعه .. قالت :

ـ كل ما هنالك انك تبدو متعبا .. هل غلطت معك .. هل انت نادم على هذا الزواج ؟!

ـ قال : نعم .. انني شديد الارهاق ، لكني عندما تزوجتك اردت ان احيا عمرا جديدا .. ان انسى عمري الماضي كله .. ان انسى حياتي كلها ، فكأنك زوجتي وابنتي وامي وحبي !!

ـ قالت : ها .. لكنك رغم كل هذا لم تستطع ان تنسى حياتك السابقة . في عينيك بعض الصور التي عجزت ان تطردها !

ـ قال : لا عليك .. الايام كفيلة بان تلحد كل الحياة الماضية !
ارتفعت نبرة صوتها بحدة
.. قالت له :

ـ اذن .. تريدني ان أسليك .. ان انسيك اهم مراحل عمرك .. تعنى انك لا تحبني وانما ما زلت تحبها هى .. هى زوجتك الاولى ، او بختك الاول وهى « عشرة » عمرك وهى رفيقة كفاحك في الحياة على المر والحلو . وهى كل أملك .. فاذن لماذا تزوجتني ما دمت لا تقدر على نسيانها ؟!

ـ قال : من فضلك لا داعي لهذا الانفعال .. لقد انتهى كل شيء !

ـ قالت : ماذا تقصد بان كل شيء انتهى .. هل انت نادم على ترك زوجتك الاولى .. ام انك غاضب لانها تزوجت من بعدك رجلا آخر ؟!! ألم تجلس عاما كاملا بعد ان طلقتها وقبل ان تختارني .. ألم تفكر .. ألم يعاودك الحنين اليها .. لماذا تعذبني ؟!

ـ قال : أرجوك .. لا تثيري اوجاعى ، فقد تزوجتك بعد عام من التفكير ، ولست نادما انني تزوجتك انت بالذات ..

قاطعته بصوت مشبع بالدمع :

ـ المهم انك نادم لانك تزوجت ، وهذا يكفي سببا لتعذر البقاء انت وانا تحت سقف واحد .. لا داعي ان تعذبني بذكرياتك وصداع ماضيك ، ولا داعي ان ارهقك بمطالبتي بحقي كزوجة لا بد ان تستحوذ على كل مشاعرك !

ـ قال : لا بد من الفرصة .. وسوف انسى اذا نجحت انت في احتوائي !

ـ قالت : لا .. ليس عندي الاستعداد لأن اتحول الى طبيب نفساني ، فدعني ارجع الى اهلي .. الآن !

فاجأه هذا المطلب .. اهتز جسده كله ، حدق فيها .. وقال :

ـ هل جننت .. مالداعي لكل هذا ؟!

ـ كل الداعي في هذا .. انني اتوقع ما سيكون .. انني ارى الآن مستقبل الايام معك فارجوك ان تكف عن خداع نفسك !

ـ قال : لكني ارتاح معك .. اشعر انك تملئين الفراغ واشعر انني احبك !

ـ قالت : انا لست شيئا اضافيا .. كل عملي ان املأ الفراغ . انني اعرف ان العشرة تتفوق على الحب .. لان العشرة هذه هي محتوى عمرك الذي ذهب كله .. هي ذكرياتك وحنينك .

●●

وخلدا الى الصمت.كان صوت « المكيف » هو الذي يملأ الغرفة ، وتحركت من مقعدها بجانبه ، واخذت تطوف ارجاء الغرفة وفي عينيها دموع تلمع .. وفي اذنيها اصداء صوت اختها الكبرى عندما جاءت اليها يوم وقف والدها وامها ينتظران اجابتها على طلب الزواج .. يومها قالت لها اختها الكبرى :

ـ تذكري انه يكبرك كثيرا .. انت في السابعة عشرة وهو في السابعة والثلاثين ؟

ـ قالت لاختها : هذا السن هو عمر الشباب .. انه ليس عجوزا !

ـ قالت اختها : لقد طلق زوجته بعد عشرة عمر طويل لانها لا تنجب ، فمن يدري .. ربما انه هو الذي لا ينجب !

ـ قالت لاختها : ولو .. لست حريصة على الانجاب !

ـ قالت اختها : بعد سنوات سوف تتمنين طفلا ، فكل امرأة تريد ان تكون اما .

ـ قالت لاختها : اذا احببته فسأكتفي به وحده .. سيكون زوجي وطفلي معا !!

ـ قالت اختها : لكنه هو لن ينسى زوجته الاولى ، ليس فيها من العيوب الا عيبا واحدا هو عدم الانجاب ، وربما منه كما قلت لك .

واقتربت من زوجها في شهر العسل .. وامسكت بيده المرتجفة تقول :

ـ اسمع .. انت لست لأحد .. انت فقط لحياتك السابقة . افهم هذا جيدا !!

وركضت الى غرفتها تجمع ملابسها وفي عينيها دموع تلمع ، ولبست عباءتها ، وحملت حقيبة ملابسها .. ووقفت على باب الشقة وصوتها في صدره :

ـ هيا .. دعني اعود الى اهلي فلقد قررت !!

●●

لم ينطق بكلمة واحدة من بيته .. حتى اوصلها الى بيت اهلها ! لكنه الى اين يذهب الان ؟!

البيت غرف مطفأة ، وصدره غرفة حطمت العاصفة بابها ، وفي عينيه ظلال كثيفةمن الصور ، والاصداء والدمع .. فكأنه الآن لا يرى شيئا .. عاجزا ان يفعل اي شيء !

الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يفعله الان هو ان يضغط على بنزين السيارة بقوة وبدون اتجاه .. كأنه يبحث عن مزيد من الظلال .. عن كثير من الظلام ليختبيء فيه ، ويضيع ويفقد الحياة الماضية والعمر الجديد !

ـ (هذا انت الآن قطعا متناثرة في كل اتجاه .. فهل تذكر عمرك الماضي ؟! كنت مثل زجاجة فارغة الا من ورقة صغيرة في داخلها وقد القيت الزجاجة في بحر الحياة العاصف ، فلما تزوجت الاولى ـ

الاصل ـ كانت هى الميناء الذي استقرت عنده الزجاجة ، وكانت هى اليد الحانية التي التقطت الزجاجة ، واخرجت الورقة وعليها هذه العبارة : ما هو عنواني ؟! .. وكتبت اسمها تحت العبارة .. فاصبحت هى عنوانك !!

ها انت الان تذكر .. انت لا تستطيع ان تنساها بالفعل .. كانت هى اللؤلؤة التي سرقتها من قاع البحر . كانت من اوائل المتعلمات .. بدأت رحلتها داخل الحياة من ظلام « صدفتها » . خرجت الى النور فوجدت طموحها هو صوت عمرها وتسلقت وجدانها حتى علت فوقه .. جعلته اقل من عقلها .. لم تحاول يوما ما ان تفرض التساوي بين عقلها وقلبها ، لانها كانت تطمح باستمرار الى العلم . كانت كبيرة كالنجاح . رزينة كالنتائج المدروسة . حلوة كرؤى الفرح ، ولكنها كثيرا ما احجمت عن البسمة فالشفاه لها ثمن باهظ :. ان نضحك بثمن وان نبتسم بحزن له ثمن ايضا ، وكان الثمن الذي تدفعه باستمرار هو إحكام وثاق عواطفها واطلق اخوتها عليها اسم : آبيه !!

وعندما تقدم لخطبتها لم يكن قد رآها من قبل .. لكن امه قالت له بعد عودتها من بيت العروس :

ـ ما شاء الله احسن الخالقين .. جمال ، ورساوة وعقل وست بيت !

ـ وقال لها اهلها : انه نشيط ، وتاجر ناجح جدا .
اما اختها الصغيرة ، فقد جاءت اليها تتقافز وتهمس في اذنها قائلة :

ـ يا بختك ياستي . شكله يجنن وعامل مستحى لكنه يبصبص من تحت لتحت !

وعندما نظرت اليه في اليوم الاول بعد الزفاف .. رأته لحظتها كأنه يحرق كل اكواخ التردد التي اقامتها في صحراء نفسها لتراه

وحده هو كل المكان .. وهو مسافة الزمان .. هو كوخها الذي يحميها من العواصف ، وسقفها الذي يظللها من الهجير ، وركائزها التي تعينها على التقدم بخطوات جديدة نحو الامل .

ها انت تذكر الآن ما كانت تهمس به في اذنك :
– ارى في عينيك عمري .

ويهمس في راحة يدها وهو يحتضن يدها ويقبلها :

– ارى فوق رأسي وجهك .. احمله وادخل به مدن المرايا . ارى في عينيك ابتسامتي ومللي وضعفي وتكبري واغمض عيني فارددد اسمك) !!

●●

الشيء الوحيد الذي يستطيع ان يفعله الان هو أن يواصل ضغط قدمه على بنزين السيارة بقوة .. وفي داخله اصداء :

– ان زوجتي الجديدة – العروسة . لا تدري سبب دموعي هذه الليلة. انها لا تدري شيئا ابدا .. لقد رأت في دموعي انني مرهق . لأ .. انني مهدم . أنها لا تعرف الخبر الذي بلغني هذا الصباح من اختي :

– (هل عرفت يا اخي ان عشيرة عمرك العاقر طوال حياتها معك .. قد انجبت يوم امس ولدا من زوجها الثاني) ؟!

–اذن .. انا السبب . انا الذي لا انجب .. انا المريض العاجز المعطل .. انا الظالم لها .. الظالم لنفسي.عندما عرضتها على الاطباء لم اصدقهم بأنها ليست عاقرا . رفضت ان اعرض نفسي انا لئلا اصدم بالحقيقة ، ورميت كل الخوف عليها هى . واضعت كل عمرها . لقد تزوجت برجل يكبرها كثيرا وتزوجت انا بفتاة اكبرها ... يا للمفارقة !!

وما زالت السيارة تطوى الفراغ والظلام على امتداد طريق المدينة .. وهو في داخله يفرد صفحات ويقرأها وتسقط دموعه على حروفها فتضخمها !!

ـ (قبل عام بالتقريب .. اراد ان يصعد الخلافات بينها وبينه . كان يختلق المشاكل .. كان يصرخ في وجهها ولم تتعود منه في كل ذلك العمر ، وكان في شعورها : الدمار لوجاء اليها ملوحا بالانفصال !

لكن كرامتها وحبها الشديد له وفجيعتها فيه .. قد نزحوا اشياء كثيرة من ضلوعها .. كل الانفاق اضحت حدودا بينهما . كل الزمن تحول الى دوائر مجوفة تحمل رجع الصدى لا أكثر !!

ـ قال لها مرة : انت عاصمة نفسي وروحي .. انت وطن افكاري . منك استمد عاطفتي نحو الحياة كلها . وفيك انت اكتشفت نفسي ..

ـ قالت له : ايضا انت حضارتي وحزني .. لكن الوقت كما احس لن يكون ملكنا ، والحدث نعجز ان نصنعه معا حياة متحدة لعمر واحد في شخصين ، ومطلوب منا ان نتصافح بظهورنا ويغيب كل واحد في مفترق يوغل فيه مدى حياته ولا مناص !

ـ قالت له بعد صمت وهى تتأمله : كأنني كنت اتوقع هذه الوقفة بكل ما فيها من شدة الارتطام .. كنت احس في عامنا الاخير هذا انك ترغب في البقاء وحدك واكون انا سبب مجاعة كل ما تنازلت عنه .. وانني ارى البحر يغرق السفن الصغيرة وانت وانا في الشيء المتحد كنا مثل بحر يغمر الاشياء كلها ولكنه سيغمرنا معا فيما بعد . فاذا انت تتحول من بحر الى سفينة صغيرة وانا ايضا .

ـ قالت له ايضا : كنت اتنازل عن عمري كله وابقى لك وحدك حتى في العدم .. كنت وطن روحي فاذا انت تقسرني على الهجرة من هذا الوطن ، ولكنني ـ تأكد ـ لن اندم كثيرا بمقدار ما سيكون

حزني هو العظيم والغامر ، فلا ينبغي ان نندم على من يبيعنا ، ولكن من الصعب ان ننسى ان العمر باجمله كان هو الذي بيع) !!

وظن بعد عام على الانفصال ان الذي باعه هو شقاءه وانه سيجد في الزوجة الجديدة سعادة لا تتكرر .. فاكتشف ان ما باعه هى سعادته ، وانه يحيا الشقاء الذي لا يتكرر .

– لقد قال لزوجته الجديدة بعد ليلة الزفاف الأولى :
– انت شهادة ميلادي الجديد .

وكان صوت زوجته الاصل الاولى تتردد اصداؤه في اذنيه :
– (لا تنسى ان الميلاد بداية الموت .. فكيف يكون الميلاد بدون شهادة موت) ؟!

اصابه التعب حتى يكاد رأسه ان يسقط فوق مقود السيارة . ترجل من عربته ورمى جسده فوق الرمال ونظراته تشخص الى السماء بحثا عن درب في الفجر ينام .. فكل الجسور كانت معتمة ولن يصل الى الحنين من جديد !!

– هل هذا معقول ؟.. زوجتي العاقر التي لم تلد طيلة هذه السنوات الطويلة .. تحمل ، وتلد قبل ان تكمل عامها الاول مع زوجها الثاني .. معقول ؟!

– نعم معقول .. الانسان يتجاهل الحقيقة عندما يفتقد فيها ما يريده .

– ولكن .. هل صحيح ان الدنيا ممنوعة على الذين يعلنون ميلادهم ؟!

– ابدا .. انت اخرق وغبي أو أنت مكابر .. فلقد اعلنت الدنيا عن ميلاد زوجتك الاولى من جديد . ولا بد انها سعيدة بزوجها رغم انه يكبرها كثيرا .

– يعني ايه .. هى ايضا كبيرة .. لم تعد تلك الفتاة النحيلة النضرة !

ــ من السبب في ملء وجهها بالتجاعيد ؟!

ــ انا ؟!

ــ نعم انت الاخر .. انت ذلك الاناني الذي كان ، ولست انت المحطم النادم الذي اصبحت !

ــ اسكت .. من انت ؟

ــ انا موتك .. انا الذي تبقى لك !

ــ لأ . انت .. انت صداها .. انت الذكريات .. ها ؟!

ــ انت مجنون!

ــ انا ؟!

لأ .. لأ .. مجنون .. ها ؟!

ــ انت مجنون !

ــ لأ .. صح مجنون ليلى ولبنى وجوليت .. ها .. ها .. ها .. ها ..

مزق ثوبه الابيض الناصع ، والقى قطعة على الرمال، واخذ يعدو تحت ضوء الفجر مبتعدا .. غائبا في جوف الصحراء .. وقد تبقت خلفه الرمال !!

الخفقة

□ وجهها ... زحام من التحدي والقدرة والأستجابة..فهل ينكسر الزمن بالفتنة المترفة ؟!



■■ إبتسامتها .. شلال ينهمر بالصفاء ، ولكنه شلال يعبر عن العنف أحيانا ..

لو لم ترتسم هذه الابتسامة المزهرة .. على هذا الوجه المائج بالفتنة .. الصاخب بالنداء ، لتحولت الابتسامة الى ألوان متضاربة بلا تعبير !

وجهها .. تعبير الابتسامة التي تعتقل كل نظرة تقترب من ملامح هذا الوجه !

إنها تخاف على وجهها ، وتخاف منه !
إن هذا الوجه : هو ثروة الأنوثة فيها ..

إنه عذابها عندما تضطرم العاطفة في جوانحها ، وهى تبحث عن إنسان الأستقرار في عيني إسنان تحلم به ليهبها الحب بلا ضنى !

إن العشرين من عمرها .. كانت مرحلة الدخول الى عذابات الحيرة ، والتلفت .. وهي تقف وحيدة في دروب الحياة بعد ان فقدت أمها التي اختطفها موت سريع في ريعان شبابها ، وفقدت والدها لاحقا بأمها حسرة وكمدا وشعورا بفراغ الحياة بعد رحيل حبه الكبير : أمها !

كان الرباط المقدس بين أمها وأبيها شمعة تضيىء الظلال الداكنة في حياتها بعد رحيلهما .. تتذكر في وهجها أن الحياة حب ، وعندما نفقد الحب لا بد ان نفقد الحياة !

الموت بعثر الحزمة المتلازمة ..

الموت كشف عن حقيقة الزيف في الوجوه حتى بين الأخوة ! اخوها الأكبر استأثر بالتركة كلها .. وضع يده على تجارة الأب الرائجة الرابحة ، وقذف بها وبثلاثة صبيان وبنت أخرى الى الرصيف !

كان الصراع في نفوسهم الصغيرة محتدما : هل يتظلمون من اخيهم .. هل يقفون بجانبه خصمان أمام القاضي يشكونه وهو شقيق لهم ؟!

اكبر الصبيان الثلاثة ضم البنتين والصبيين الآخرين وقال لهم :

ـ لا تحملوا هما .. سأعمل !

ـ قالوا له : ولكنك بلا مؤهلات علمية ؟!

ـ قال : المهم ان اعمل ، وليس في العمل عيبا .

خاضوا أمواجا عاتية .. كادت اختها التي تكبرها ان تسقط بحثا عن المال .. عن أسباب يحفظون بها قوام البيت المضعضع !

هى أيضا جربت ان تمرغ اسم اخيها الأكبر الناكر .. السارق لحقوقهم ، وتقذف بذلك الأسم في الوحل !

ـ الحياة تافهة في الضعف .. الحياة قاسية في القوة .. الحياة نبيلة بالحب ..

فالحنان مفقود ..

الذئاب تعوى من حولها ، وفتنة وجهها اللافتة تستطيع بها ان تنتقم من كل رجل .. تنتقم من اخيها !

عذاب رهيب .. حيرة قائظة ، ولكنها لا تستطيع الأستمرار ، فالحياة ليست هى استمرار لقمة العيش ، وانما هى استمرار قدرة الأماني ، وكل أمانيها قد تحولت كما سطح غربال واسع الفتحات !

شعورها يعذبها ، وحياتها تحيل ذلك الشعور الى كهف شديد العتمة .. محكم الأختناق !

وكل هذه الأنوثة فيها إمتحان لقـدرة الصبـر .. لصبـر الأحتمال .. تبحث هى عن انسان يضمها الى الأمان في صدره لتزهر حياتها فيه ، ووجهها الفاتن المثير يكاد ان يسقط من التلفت الذي لا ينتهي في عمرها ، وقد بلغت الآن السادسة والعشرين !

سن التحدي ، والأغراء ، والفرصة !

تعرف انها ستبكي طويلا .. والعمر يزحف بها بطيئا ... يعجز أن يلاحق قطار السنين !

●●

واستعاد ملامحها تلك ...
غمرته الأبتسامة المزهرة على وجه صاخب بالفتنة ..

يستريح على تقاطيع بريئة .. كأنه وجه طفلة ، او كأن على الوجه التفاتة ملاك يغني للحب وللحياة !

وجهها يعتقل قلبه بحكم مؤبد ..

رأسه الآن يتطوح في كل اتجاه . غرس اصابع يديه في جفنيه ليحدد الرؤية !

إن أكثر الأشياء تبدو غائمة ومهزوزة ..
إنه لم يعد يرى الا وجهها .. يعشق كل زواياه ، وكل التفاتاته ويحذر منها ايضا !

وجهها ـ بكل هذه الفتنة ـ يعذبه . ان براءة الجمال فيه قد اشتدت إضاءتها على ملامح الوجه ، وهو يستعيد هذه الملامح ، ويفتش في تضاعيفها عن الصدق !

إبتسامتها تسكب في عينيه ولها متقدا !

ترى .. الآ يتطور هذا الجمال ، فيتحول الى غرور يزيد ضعف الانثى فيها ؟!

كأن خواطره قد تحولت الى مطارق تهوى داخل رأسه المتعب ، وترن داخل صدره المكثف بالوجيب وبالشوق !

●●

سحبت الشمس اشعتها .. لملمت وهجها ..
كأن هذه القيلولة غائمة داكنة .. مثلها بعض الناس يوارى صفاءه ، واشعاع نفسه خلف انقباضات المعاناة .. وراء اشباح الحزن وهى تجرح الفؤاد كما شفرة .. تقطع كل متعة بالتخيل !!

عيناه مليئتان بهذه الظلال .. لكنهما مغمضتان على رجع يغرى الأجفان أن لا تضيق على حقيقة تهز في داخله وجهها وتشوه ابتسامتها !

إنه يحاول أن يبدد قلقه ..
يحاول ان يطرح السؤال الحاد والمحدد : يحبها .. او لا يحبها ؟!

يحاول أيضا ان يقتل الشك الرمحى في صدره : تحبه .. ام تعبث به ؟!

إن العبث بالحب .. لا أكثر من زمن ومكان وحادثة .. لكن ما يترسب في الأعماق .. يبقى هو الأصداء ، او هو الصدأ !!

ـ (صدقني يا سيف .. يوم ودعتك بعد مسائنا الأول الذي شهد لقاءنا وامتزاجنا روحا ووجدا .. لحظتها احسست ان كل الحياة تنسحب من وعي وشعوري بعد رحيلك . كل شيء بعد ان ذهبت لاطعم له ولا لون . كل من اقتربت منهم بالصداقة .. هربت منهم بعدك بالملل والفراغ .. حتى أكون معك دائما في خلوتي الى نفسي ، فأصغي الى أصداء صوتك الجديد ابدا) !.

تفكيره الآن .. كما مجلد كتاب ضخم ثمين .. تراكمت عليه طبقات الغبار ، وفوق هذا الغبار بقايا مطر ، فتقوس مجلد الكتاب فوق كل ما تحته !

شد جفنيه بأصرار لينام ..

النوم غيبوبة مؤقتة .. يتخلص بها الانسان من قشوره التي تقوست .. ما يلبث ان يفيق الانسان بعد ذلك ليكتشف الكثير من القشور الجديدة !

ترى .. هل كان كلامها مجرد قشرة جديدة ؟!

ما الذي تريده منه ، وهي ترنو بطرف عينيها لآخر ؟!

ـ قال لها : اريد أن ارى هذه الدبلة التي في أصبعك ؟!

تبدل لون وجهها .. توترت اصابع يدها اليمنى .. قالت له :

ـ ماذا تريد منها ؟.. لقد رويت لك الحكاية السمجة . أهلي يصرون على ان ازوج منه وأنا ارفضه .. انني لا اطيقه ابدا . لا اريد رجلا في حياتي سواك أنت !

ـ قال لها : ولكن .. دعيني اراها !

وامتنعت .. وبادر اليها فحبس أصبعها بين اصابعه واخرج الدبلة وقرأ .

فجأة .. ارتسمت الدهشة على وجهه . امتقع لونه . ارتعشت الكلمات على شفتيه ، وبصوت متوتر قال لها :

ـ ولكن الأسم المحفور داخل الدبلة ليس هو اسم خطيبك !

ازداد وجهها احمرارا . قادرة على تملك جأشها ، وحاولت ان تهمس في اذنيه .. قالت له :

ـ دعني احكي لك كل ما لا بد ان تعرفه . ارجوك .. انني احبك فلا يمكن ان أكذب عليك !

ـ قال : لا اريد ان اعرف المزيد .. إخرسي !

ـ قالت : بل لا بد أن تعرف .. لا تجعل قلبي يضيع بخفقة عذاب من اجلك . ان هذا الاسم المحفور هو لرجل عرفته قبل خطيبي .. كان هو عذابي عندما تصورت انني احببته ، وكنت انا عذابه وما زلت لأنه احبني ، ومن اجلي استعد ان يطلق زوجته لاقترن به ، وكدت ان أجعل الجنون حياة .. ظننت انني احبه ، ومثلى لا بد ان يفعل ذلك . أبحث عن حنان ام .. عن عطف أب .. عن انسان يعيد الثقة لى بالناس،خاصة وانت تفجع في اخيك من لحمك ودمك . كنت قاربا يضربه الموج الشديد ، وتعصف به الرياح والأنواء في عمق محيط . لكنني بعد ان عرفتك أحسست أنني أعرف الحب معك لأول مرة .. قطعت صلتي به .. افهمته انني مخطوبة ، ولكنني ايضا لن اتزوج خطيبي .. لأنني احب الأنسان الذي عثرت عليه متأخرا ، ولكنه سخر مني وطاردني ، وخطيبي لا يعرف ، وبعد مطاردة منه لى في كل مكان .. استطاع ان يسرق الدبلة ويبدلها باخرى .. كتب عليها اسمه ، وتاريخ خطوبتي لخطيبي الحقيقي !

ـ قال لها وكأنه يصارع موجة عنيفة : ثم ماذا ؟!

ـ قالت ودمعة تنزلق من عينيها : كل ذلك هو لا شيء ابدا ، وكل الشيء هو أنت ، فذلك الرجل الذي ظننت حبا له وجدني في لحظة دوار من شدة العاصفة والموج .. خلته طوق النجاة ولكنه بعد ان افقت لم اجد فيه الا شعور المن والاستغلال ، وخطيبي فرضه أهلي ولا أطيق ذلك الفرض كعمر هو كل الحياة !

ـ قال : إنه جنون .. هل تحبين الجنون .. هل احببت جنون الرجل الأول قبل ان نلتقي معا ؟!

ـ قالت : لقد اكتشفت أنني لم أحبه يوما ، ولكنني كنت ابحث عن إنسان يعطيني ما فقدته . ربما في لحظة فرحة بالنجاة اعجبني جنونه فظننت الأعجاب حبا ، وعندما رأيتك .. اكتشفت انني مجنونة بك .. جنون العقل والقلب معا .. جنون القوة معك وليس جنون الضعف وحدى !

(نصف ساعة من الزمن ، وهو يتقلب في حلقه دائرية .. تطوف به عبر صور قديمة ، وتستقر به عند صورة جديدة لتلك اللحظة التي وقف فيها امامها يردد :

ـ ها نحن نلتقي .. فهل نمتزج ؟!

يومها .. اجابه وجهها الحافل بترف الفتنة .. بابتسامتها المشبعة بالصخب .. قالت له :

ـ وانت بعيد .. ذاب قلبي فيك .. الآ يمكن ان تصدقني ؟!

وتسللت دمعة من حدقتيه .. كأنه يقرأ في اذنيها الآن هذه العبارة : « اقرأ همسك المكتوب على لوحة الزمن المنكسر .. أقرؤه بحيرة . واضيع في موجة من التهدج والعشق الأخرس » !

اغتسل وجهه بالدموع الدافئة .. فلا يمكن لمثل هذه الانثى ان تكون مجرد ذكرى ، او عذاب حنين) !!

ـ قال لها ووجهها بين كفيه : كانت اشواقي تسافر الى نداءاتك .. كيف بردت تلك النداءات ؟!

ـ قالت له وأصبعها يمسح شفتيه : صدقني يا سيف .. عندما وجدتك طورت النداء .. جعلته امتزاجا في نظرتك . اريدك ايها المجنون بالشك ، فلماذا تعذبني بشكوكك وغيرتك ؟!

تخيل ان نبرة صوتها مشروخة بالصرخة ..
كأنها تكتب في لحظة اصغائه ملحمة صدق مذهلـة .. لا يصدقها !

ـ قال لها : من قال انني اهرب منك يا كل الانثى .. لكنني اريدك لى وحدى .. وحدى فقط بكل انانية !

كان صوته اختناق البوح في ليلة عاصفة بالرعود ..
ـ قالت له : صدقني .. لقد تركت اثمن الفرص من اجلك وركضت اليك .. فماذا بعد ؟!

(طفولة في حديثها ، ونشوة في عينيها ، وظلال في تصرفاتها .. الزمن ينكسر بالفتنة المترفة ..

وجهها حشد من هذه الفتنة .. زحام من التحدي والقدرة ، والاستجابة .. لواعجه تشعل مساحة من حرائق النفس ، فكيف تنمو الأشجار وتتفتح الزهور ؟!)

ـ قالت بعد صمت : انت تبذر الشكوك في اندفاعي اليك .. فهل تحدني على كراهيتك ؟!

ـ قال : لا تستطيعين كراهيتي !
ـ قالت : ها انت اذن تؤكد حبي لك .. فلماذا الشكوك .. قل لي ؟!

(في عينيها حدة الأنفعال بهذا السؤال الذي يبدده .. في صدره ضباب الشكوك ، واندفاع الشعور ، وبينهما صراع يمزق اضلعه ويكوي خفقه ، ويشرخ افكاره) !!

ـ قال لها : فرق بين الشك ، وبين الخوف !
ـ قالت : انت تخاف علي .. وأنا اقترب منك لتحميني ؟!
ـ قال : انا اخاف منك عليك ، وأنا اقترب لأقيدك !
ـ قالت : اعرف .. انك تخاف ان لا يستمر الصدق في حبي لك ؟!

– قال : اخاف ان يتحول الحب الى شيء يقيدك ويجعلني سجانك ، واذا قيدتك قد لا تحتملين !!

– قالت : ولكن الحب يكسر القيود !

– قال : المستحيل يا « أنثى » أن نقيس عواطفنا بالترمومتر .. انها فجيعة !

– قالت وهي تبتسم : يا « سيف » .. انك تحدق في عيني كثيرا .. هل هما الترمومتر ؟!

– قال : عيناك يا « انثى » واحتى وراحتي .. فلا تزيدي الكلام .. وانما دعيني اصغي الى صوتك في أعماقي !

(انت تراني اهرب لأغفو في عيون الأطفال ، واظل انتظر من جديد حتى لا تذهب الآهة ، ولا ينشرخ الشوق في حدة الرياح ، وتفتح الحقيقة فمها دهشة في السراب) !!

يسند رأسه بكفيه .. وهو يستعيد هذه العبارة التي قرأتها له « انثى » ذات مساء من كتاب اهداه اليها يوم ميلادها .. انه يستوحى اصداء زمن ينبعث من بين ضلوعه !

وامتدت يده الى المذياع بجانب رأسه ..

لا بد ان تسقط الآن دمعة جديدة تختلف عن كل الدموع !
جاءه عبر المذياع صوت أم كلثوم يشدو قصيدة احباها معا :

وعادهـــا الشوق للاحبـــاب فانبعثت
تبكـــى ، وتهتـــف احيانـــا بشكواها !

إنه لا يدري .. لا يريد ان يدري شيئا !

إن « انثى » هي قصيدة عمره المتكاملة وعذابه ..

انها التي بعثت الشجو من اعماقه لتقتله بالشوق !

لم يعد الحب قضية انسانية .. لكنه في زماننا اليوم هو لا اكثر من ممارسة .. تجربة .. وقفة .. متعة ، ويبقى الرماد !
يخاف ان يغمره الرماد .. فكلما احتد العشق في جوانحنا .. كلما اقترب من النهاية !

●●

ـ قالت له : سيف ... ترى ما الذي اصابك ؟ .. انك لا تراني وانا اقف امامك منذ ساعة ؟!

ـ قال : ها ... كنت افكر يا « انثى » في فندق اجد لك فيه غرفة لتأخذين قسطا من الراحة بعد السفر الطويل .

ـ قالت : اسمع يا « سيف » .. يا حبيبي .. انني لا اريد غرفة .. اريد فقط قلبك .. قلبك كله أسكنه وأغفو !

(ايها الصدق يا عذابي .. انني مخبول .. مخبول) !!
ـ قال لها : ولا يصيبك السأم عندما تسكنين قلبي ، واغلق عليك بابه حبسا مؤبدا ؟!

ـ قالت وهي تضع رأسها على كتفه : كيف يكون ذلك وأنا اركض كل هذه المسافات .. لآخذ مكاني فيك .. في داخلك ؟!
ـ قال لها : ولا تحاولين بعد ان اخبئك داخل هذا القلب ان تحفري ضلوع الصدر وتحيلينها الى خروم لتتسللي منها الى الخارج ؟!

ـ قالت له : يا « سيف » .. كيف يمكنني ان اهدم بيتي .. هل ابقى في العراء ؟ .. ان قلبك بيتي الآمن ، والحياة بدونك صحراء منثورة بالعطش !

(لأنك يا ايها الأنسان لا تستطيع الأرتقاء الى انتشاء الزهرة .. الى خفقتها ..

لأن الحب مرة واحدة فقط .. ربما يتحول الكذب الى صدق مضاعف) !!

وجهها يزهر بالابتسامة

رأسه يتطوح ، ولكن قلبه يزداد خفقه بعنف :

ـ قال لها : تعالى « يا انثى » .. تعالى لكي نحب .. اقتربي مني اكثر لنستطيع ان نمتزج .. تعالى ، فمن اجل ان نحب لا بد ان نتعذب !

والتصقت به تحتمى في صدره ..

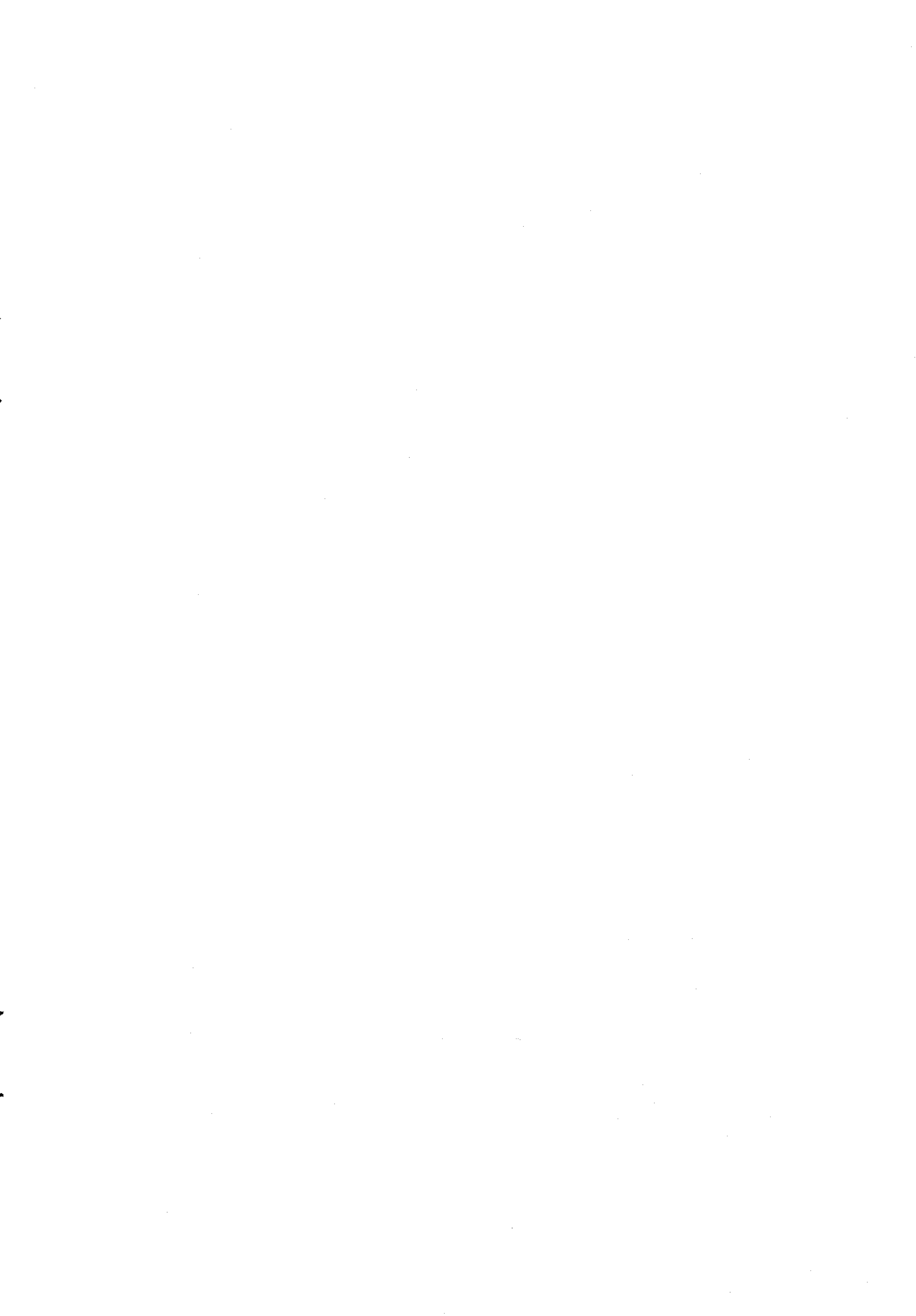
وضعت رأسها الغامض على صدره المتقد ، وخبأت وجهها الصاخب بالفتنة .. المنهمر بالصفاء ، ومرغته على صدره الحائر !

وتناثر الكلام .. ما تبقى من كلام ـ فوق حبات الرمل .. واذا العذاب .. خفقة تغمر القلب !!

ومن الصعب ان يكون لهذا الأحساس .. نهاية !!







نساني

□ كل الأمكنة واحدة إذا اجتمعنا .. كلها مختلفة إذا افترقنا !لأن الموت حقيقة ، فهو وحده الباهر في دنيا تلونها الأوهام !!

■■ تجف الأرض .. تجف !

تتشقق عطشا ، ونداء ...

تتفلح الأرض ، والخطوات فوقها تدك العطش ..

تدك النداء ، وينبجس الظمأ كالنبع الذي ينوح !

يا ذلك المطر : انسكب في النفس .. اغمرها يا ذلك المطر !

يا هذا الليل الممطر اصداء ولوعة وشجنا : دفعة واحدة وينغرس النصل في خفق الفؤاد ، او تنبت زهرة في فيافي الظمأ وحشية تحنو على الدموع .. دفعة إلى الأمام ، اودفعة الى الخلف !

ولكنه لا يدري .. لا يحصد الا سحل الحياة ..

كان قد اقترب من سياج الكورنيش . كانت اشياء كثيرة قد ابتعدت من رأسه ، وفارقت صدره المرتجف .

ما الذي يفارقنا ، والذي نفارقه اذا اضطربت الرؤى ؟!
ولكنه لا يدري ...

خروم كثيرة متشابكة ومعقدة .. كما شبكة الصياد كانت نظراته . طوح بها في اللامدى .. بعثرها في الظلام الكثيف لتضيع به .. تضيع معه في لا نهاية هذا البحر الممتد امامه كما السر .. كما

التعب ، لتختلط بعد ذلك بترددات الموج الخافتة .. كأن البحر يتنفس !

ـ (ما اجمل هاتين العينين ، وهما تهمسان بالنظرة الواثقة .

لا .. بالنظرة التي ظن انها واثقة في المساء الأول ، وكانت تحف صوته بهاتين العينين ، زائغ النظرات هو ، ولكنها وجدت في نبرة صوته شاطىء امان . تشبثت بالصوت . ادمته بالجدل ليستطرد

ويحكي اكثر واطول . وبتينك العينين ذات النظرات المدثرة في ظلال المساء .. شدت الصوت اليها بلا هوادة . طرحت نبرته وبعثرتها

فوق رمال باردة لزجة بالرطوبة ، ولم تنم العينان ، وانشرخ الصوت وهو يحتبس في حنجرته بعد توديعها) !!

تجف الأرض .. تتفلح بالظمأ ..

وهو لم يعد يدري .. هل كانت دفعة الى الأمام ، أم دفعة الى الخلف ؟!

نفخ بشفتيه المكتنزتين قليلا على التراب البارد المبتل بالطل .. على الحصى المتناثرة كأنها نفايات المد .. على الغبار الذي عجنته الرطوبة فوق السياج لئلا يتسخ ثوبه الناصع بياضه .

بياضه ؟! .. هه ...

أيكون الثوب اثمن بكثير من نصاعة النفوس التي تلوثت بالحقد ، وبالحدة ، وبالأدواء الغريبة والمقتحمة ؟!

ولكنه كيف يستعيد الآن نظراته الهاربة من عينيه ؟!
وما الحصيلة ؟!

النظرات محدودة بمداها .. لكن الشعور منطلق الى ابعد من حدود الأرض ، وقد جفت الأبعاد بفعل هذا الجفاف في رؤية الحس .. في عاطفة الانسان !

يا ذلك المطر : انسكب في الصدر يا ذلك المطر .. ليختمر ببذرة الوجد !

الأحجار . الرمال . الموج الواهن المتسكع على وجه البحر في صمت الليل ، وبقايا الناس ... كلها اشياء تلتصق بجدار سياج الكورنيش على حافة البحر الواقف امامه ، وبساقيه المتدليتين من فوق السياج .. يطوح بالفراغ كأنه « يدوخ » ما تبقى في صدره من عشق .

وجهه الى البحر ، واذناه لم تعودا تسمعان اصوات السيارات المنطلقة بجنون فوق الأسفلت من خلفه .

الناس يثقبون الليل بتفاهاتهم . طرقات منطقة « الحمرا » تشتعل بسرعة السيارات التي تدور حول نفوس اصحابها ، وقد اختبأوا داخلها يبحثون عن الصدى في هذا الليل !

ـ (ساحر صوتها وهو يتردد في سمعه من خلفه . كانت تختبىء بظلال نفسها ، وحيرة بوحها في المقعد الخلفي للعربة . كان صوتها نجمة في ضباب ، وكانت تحاول ان تنتزع نفسها من الضباب في نفسها لتتناسى ما يمزقها من الداخل . لحظة رؤية للحياة ولو بالوهم . وهو امامها .. امام مقود العربة ، وهمها الجميل الذي عايشته في خلوتها هو .. في تفجر انينها الذي تكبته كلما واجهت الناس وصديقاتها .. هو) !!

وما زال الناس يثقبون الليل ، والسيارات تنطلق من خلفه فوق ظلام الليل ، ونظراته تنطلق هى الأخرى بجنون .. لا تنظر الى شيء ، وانما الى كل شيء غامض مبهم .. لكنه يشع في ظلمة هذا المساء حزنا !

نظراته تسافر ولا تعود .. تدخل صدره وتحتبس !

نظراته تجسد في حدقتيه ملامح تشف وتشف حتى تتحول الى روح ..

نظراته تتخطى الأضواء الباهتــة المتناثــرة فوق ارصفــة «الحمرا» :

تتخطى ايضا الأضواء الصفراء المرئية عن بعد قادمة من الميناء .. صفراء كما هذا الألم في صدره ، وقد افتقد ميناءه !

رأسه يدور في كل الأتجاهات ..

في الصمت .. كأنه غلالة للبحر ، وصرخة في أعماقه المكتومة .

في الشجن .. كأنه صدر العالم المطعون الفاسد ، وعذاباته .

في اللهب .. حينما ابتدأ شمعة اضاءت جوانحه ، ثم احرقت الجوانح ! الرطوبة شديدة ، والهواء يلفح انفه وصدره ..

ما الذي يفر منه هؤلاء الناس الذين يتجولون عبر شوارع «الحمرا» في هذا الليل الفارغ ؟!

الفراغ يفرغ الفراغ .. يفرغ السأم ويقذف به الى البحر ، وتهدأ النفوس والغرائز .. بالوهم ايضا !

ـ (هل نتحرك الى مكان آخر يا « ناني » ؟!

من وراء المقعد جاءه صوتها قادر على تحييد التعاسة :

ـ ولكن .. كل الأمكنة واحدة اذا اجتمعنا .. كلها مختلفة اذا افترقنا !

ـ آه .. تتحركين بصوتك في مسامى كالضوء .. تنعشين هذا المتعب المعنى بالحسرة ليستيقظ ويتكامل من جديد !

ـ قالت ناني : لم أسمعك تجيب . هل كنت تحادث نفسك ايها الفنان الغريب ؟!

ـ قال : كنت أفكر في الظمأ . الانسان يا سيدتي شره طماع .. يشرب الكأس الأولى ولا يرتوي ولا يكف .. يخوض التجربة ولا يكتفي ولا يحذر ، ولكن .. كيف نجعل القلوب تحذر ؟!

ـ قالت ناني : هل تقصد ان المكان يمكن ان يكون هو الظمأ ، او يكون هو الأرتواء ؟!

ـ قال : أقصد أن الشعور بالظمأ ، او بالأرتواء هو الذي يعطي المكان ابعاده وقيمته .. لذلك فكرت ان نتحرك من هذا المكان لنجرب الشعور الآخر !

ـ قالت ناني : هل تشعر في هذا المكان الذي يضمنا الآن بالظمأ ؟!

يبتسم كأنه يهذي .. يلتفت خلفه لينبش ملامحها من تراكمات الظلال عليها .. يقول لها :

ـ لا استطيع ان اعرف شعوري عن هذا المكان .. الا اذا جربت مكانا غيره ، وعرفت شعوري فيه !

ـ قالت ناني : اذن .. لنذهب الى الرصيف الآخر الملاصق للبحر . هناك رجل يسهر الليل ليبيع السهارى الذين يشعرون بالظمأ زجاجة بيبسي .. الآ تود ان نشرب انت وأنا من زجاجة بيبسي واحدة .. ليكون بيني وبينك ماء وسكر مثلما بين الناس عيش وملح ؟!)

الفراغ يفرغ الفراغ .. وتهدأ النفوس والغرائز بالوهم ايضا !

وما زالت ساقاه مدلاة من فوق سياج الكورنيش يسترجع الكثير ، وخفقاته كلها مدلاة . الذي يضيع لا يعود . الضربة القاصمة ، وشاهد الأثبات في النهاية هو العقل لو بقى .

آه منه هذا العقل ..!

اما ان يعود بالقناعة والتجربة ، او يتبدد في الفقد لأشياء غالية !

انه يستعيد ذلك المساء ..

كان يقف امام باب بيته في « البغدادية » . عيناه تحولتا الى كاميرا سحرية تلتقط اغرب المناظر والملامح والتصرفات . عالم يموج بالمتناقضات : مكتبة مفتوحة لا يدخلها الا نفر قليل .. اكثرهم يبحث عن كراريس مدرسة ، ومحايات ، ومساطر . طز على

الكتاب والمعرفة لا يؤكلان عيشا ! .. بجانب المكتبة « سوبر ماركت » بابه مزدحم .. داخله مزدحم . يا الله .. ليت الناس يفكرون بنصف الوقت الذي يأكلون فيه .. كأن الحياة معدة ! .. سيارة يابانية صغيرة تتلوى فوق الأسفلت المكسر تتخطى كل السيارات .. لماذا يتعجل الناس الموت والتشوهات ؟! .. امرأتان تشيران لسائق تاكسي فلا يقف .. لماذا هو تاكسي ؟!

ـ آبيه عاصم ... آبيه عاصم ؟!

اخته الصغرى التي يدللها .. حلوة وشقية ، لقد رعاها بعد وفاة والده . انها كثيرا ما تدخل عليه غرفته وهو يرسم . كثيرة هي اسئلتها .. تسأله في كل مرة :

ـ من هذه المرأة الحلوة التي ترسمها يا آبيه .. هل رأيتها .. صاحبتك ؟ ليه طيب ترسمها ؟.. اللون الأخضر اجمل من اللون البني يا آبيه .. انت ذوقك وحش يا آبيه .. بس لما رسمتني كان ذوقك يجنن يا آبيه !

ـ ماذا تريدين يا غادة يا شقية ؟!

ـ التلفون يا آبيه يقول لك فيه واحدة تبغاك !

ـ وحدة ؟ .. قالت لك اسمها يا غادة ؟!

ـ اسمها .. اسمها . يا خويا ما شاء الله يعني !

ـ بس يا بنت .. عيب !

ـ عيب عيب .. انما صوتها حلو بشكل يا آبيه . بنت الكلب صوتها يسطح !!

ـ (يومها امطرت السماء . ارتوت الأرض . يومها كان اسمه : يوم المرة الأولى . كانت « ناني » تتكلم بصوت مغمـوس في الحزن) !!

ـ قالت له : رأيت معرض لوحاتك . اعجبتني لوحة واحدة اسمها : الموت !

ـ قال لها وهو يلون فزعه بنبرة ضاحكة : ولماذا الموت بالذات .. ألم تعجبك لوحة الأمل ؟!

ـ قالت ناني : الموت لأنه الحقيقة .. هو وحده الباهر في دنيا تلونها الأوهام !

ـ قال : لماذا اليأس .. لماذا هذه النظرة الداكنة ؟!

ـ قالت : بالعكس .. انها نظرة صافية .. أحسب انها تضفي وضوحا على كل نظراتنا الأخرى لشهواتنا وملذاتنا وافراحنا !

ـ قال : لكن الحياة تحفل بالسعادة ، الأمل وحده سعادة . اننا لا نقدر ان نحكم على الحياة بالموت . لا نستطيع ان ننتج ونحب ونترابط ونبدع ونتناسل الا بفكرة الحياة .

ـ قالت : الموت يكبر في اعمارنا .. بينما الحياة تسلبنا هذا العمر !

ـ قال : ولكني اخالفك .. اشعر احيانا بالحزن ، لكنني لا ادع نفسي تضيع في اليأس !

ـ قالت ناني : تكفينا لحظة صدق .. انها عمر كامل :

ـ قال عاصم : هل تقبلين عرضي ؟!

ـ قالت : هل تريد ان ترسمني ؟!

ـ قال : لاؤكد لك ان ملامح وجهك ـ رغم انني لا اعرفها الآن ـ هى ملامح تعبر عن الفرح !!

ـ قالت : وجوهنا ليست هى نفوسنا يا عاصم .. اغلب الوجوه التي تراها هي اقنعة مزيفة !

ـ قال : والقلوب ؟.. انها ترفض الزيف والاقنعة ، ومن خلال حوارك اعتقد ان قلبك مطبوع على وجهك !

ـ قالت : قلبي ؟! .. انه محارة مترسبة في عمق مناسبة حزينة !

ـ قال : كيف .. انني لا أفهم ؟!

ـ قالت : لا يهم ان تفهم الآن حتى تعرف قلبي لتستطيع ان ترى وجهي جيدا !!

●●

ليته لم يولد ذلك المساء ...

لا .. بل ليته تمدد وتمدد ، وبقي وحده لا مساء بعده .. هو البقاء الدائم في العمر !

لكن مساء آخر آت ..

الهاتف مرة اخرى .. انه بجانبه ينتظر بلا موعد . انها لم تمنيه . لم تعطه موعدا . انها ذابت مع صوتها وهو محكوم الأنتظار له .. الأنتظار ما اقساه .. ما اروعه !

والأيام تتعاقب ..

هل قال الأيام ؟! ... بل اللحظات تتفسخ .. تتقشر بين اضلعه ، ولا يأتي صوتها .

سئم من رنين الهاتف وهو يحمل اليه الأصوات كالكرنفال .. ألوان غير متجانسة . مفاهيم تعيسة وسخيفة .. كل صوت يأتي الى اذنه بمأذون :

ـ هل أنت عازب يا عاصم ؟!

اللعنة .. متى كانت الحياة زواجا فقط ؟!

قبل اللعنة .. هو يفتش بضنى .. هو يبحث عن انثى لا تتخلف في شعوره جثة هامدة بعد شهور . هو متعب جدا حتى الهلاك ، ولا يعثر على انوثة تهمس بالفهم وتعزفه . العالم مليىء بالنساء الفترينات . جمال يهبل .. انما الوعي في الحس بورصة .. النتيجة فيها غالبا هي الخسارة !

ـ يا عاصم .. كم فتاة عرفت ؟!

عمى .. نفس السؤال السخيف . أرأيت يا سيد عاصم .. يا ايها الفنان الكسيح ان المفاهيم كوبيا ؟!

ـ كثيرات يا صغيرتي ، واسخفهن انت !!
ويرن الهاتف من جديد .. لا بد انها تفاهة اخرى !

ـ قال : من ؟.. محارة مترسبة في عمق مناسبة حزينة ؟!

ـ قالت ناني : انت لم تنس عبارتي .. ما رأيك لو جعلتها عنوان لوحتك الجديدة ؟!

ـ قال : و .: كيف اجد مكان المحارة ؟!

ـ قالت : عاصم .. انت الأنسان المريح في كل هذه الحياة من حولى !

ـ ....
ـ قالت ناني : اين الوانك الصارخة في لوحاتك .. انت لا تجيب ؟!

ـ قال : الصمت يا ناني هو الألوان مجتمعة .. فيها الراحة والقلق .. فيها الخوف والفرح .. فيها العثور والفقد !

ـ قالت : لقد استطعت ان تلون نظراتي بالوان لوحاتك ، وان تلون ايامي ايضا ، والمفروض انك لا تخاف .. انا التي اخاف لأنك لا ترى نقطة واحدة في صدري لونها قاتم !

ـ قال : دعيني ادخل .. لأضيف الى النقطة لونا يجعلها فاتحة بيضاء !

ـ قالت : امنيتي ، ولكنها عجزي ايضا . دع اشواقنا بريئة من إدانة الفراق لها يا عاصم !
ـ قال : هل مقدورنا ان نحيا المناسبة الحزينة طول العمر ؟!
ـ قالت : عندما تعرف الحقيقة سيطول صمتك . اخاف عليك من هذا الاكتشاف يا عاصم ، فدعنا نتحرك قليلا .. لقد قررت ان

اجعلك تحاول رؤية قلبي على وجهي .. انني انتظرك غدا بعد الساعة السابعة !

●●

ليته لم يولد ذلك المساء ..

«ناني» تختار المقعد الخلفي وراء عاصم .. بجانبه تجلس اخته الصغرى الشقية غادة ، وخلفها تجلس اخت ناني !

ناني تبتسم في ظلال المساء . ترسل صوتها من جانب اذن عاصم تقول :

ـ هذه اختك التي حدثتني عنها يا عاصم ؟ .. ستصبح في العشرين ملكة جمال !

ـ قالت الصغيرة غادة : سبقتيني يا ابله ناني .. لولا الليل لحدثت الآن ازمة في المرور !

ـ قالت ناني : يا شقية .. عاصم قال لك ان تقولى هذا الكلام ؟!

ـ قالت الصغيرة غادة : آبيه عاصم ؟ يا حرام .. خلاص ما يعرف يتكلم ، وهو اللي كان ما في احد يقدر يوقفه عن الكلام !

ـ قال عاصم : متى نبدأ في تأمل القلب على الوجه ؟!

ـ قالت ناني : لا تتعجل الأسى يا عاصم . قلبي محروث .. لقد حرثه صوتك ، وحرثته كلماتك ، وحرثته الوان لوحاتك . قلبي على وجهى .. على لساني .. في رعشة يدي ، فلا تدعني اصمت في أقصر وقت !

ـ قال عاصم : ناني .. انني ...

ـ قالت : اعرف .. انك في الليلة الأولى التي تعرف فيها وجهى ، ولكنك في الليلة الواحدة بعد الألف التي عرفت فيها قلبي وخواطري ورؤيتي !

ـ قال : هل نسكت عن الكلام المباح ؟!

ـ قالت : الأرض العطشى لا يرويها مطر السحاب .. انني لا اكثر من سحابة تعبر حياتك !!

واغلق الصمت الشفاه .. اقفلها حتى فرغت العربة من ركابها ، ولكن الصدور اخذت تنزف .. الجرح غائر وجثة !

عندما بلغ عاصم باب البيت .. سألته اخته الصغرى غادة :

ـ آبيه عاصم .. ليه الناس يسكتوا فجأة ؟!

ـ قال لها : عندما يصبح الكلام سخيفا يا صغيرتي !

ـ قالت غادة : وما هو الذي يبقى غير سخيف ؟!

ـ قال لها : ذلك الصمت الذي سألتني عنه !

●●

في المساء الآخر .. أتاه رنين الهاتف . صوت ناني مضرج بالحزن :

ـ قالت له ونبرتها دمعة : عاصم .. لا تلحدني في صدرك . صدرك لن يكون قبرا لكل الذي احسه بين اضلعي . صدري هو القبر ، ولقد جاء الخوف يا عاصم مدويا .. انني فقط خفت عليك من صدري .. خفت عليك من البقعة الداكنة ، هل لاحظت ليلة امس ؟.. ان كل الوانك لم تستطع ان تضيف الى النقطة الداكنة ما يجعلها تتفتح !

ـ قال عاصم : عرفت الآن ان يأسك اقوى من حبك !

اجهشت « ناني » بالبكاء .. قالت :

ـ لا تقل هذا يا عاصم .. حبك حياة ، فكيف اضع حبك في الموت ، وصدري موت ؟!

ـ قال : انني لا ادري .. لم اعد ادري .. انني في متاهة كأنني ارسم لوحة سيرياليزم في معرض للوحات التقليدية !

ـ قالت : عاصم .. غدا اريد ان ارى الحلوة غادة .. دع اختك تأتي الى البيت .. سأعطيها رسالة لك !

ـ قال : لا .. انني اشعر انك تصدرين حكما بالاعدام .. ان خوفك شرس !

ـ قالت : لا تهرب الى الوهم .. انني اريد ان انقذك .. لأنني اقولها لك للمرة الأولى : أحبك !!

ـ (ليته لم يولد ذلك المساء ...

يا ذلك المطر : انسكب فوق الأرض القاحلة العطشى .. يا ذلك المطر !

تجف الأرض .. تتفلح بالظمأ ، وهو لم يعد يدري .. هل كانت دفعة الى الامام .. ام دفعة إلى الخلف ؟!

وما زال الناس يثقبون الليل ، والسيارات من خلفه تنطلق فوق ظلام الليل ، ونظراته تنطلق هي الأخرى الى المتاه !!

ما زالت ساقاه مدلاة من فوق سياج الكورنيش ، وخفقاته كلها مدلاة . الذي يضيع لا يعود) !!

وفي الظلال .. من خلال اضواء السيارات العابرة ، وفوانيس الشوارع المتثائبة .. ينشر «عاصم» ورقة صغيرة بين كفيه .. زمنها ساعات .. زمنها دهر بكامله .. يردد كلماتها في الشرود :

ـ (عاصم ايها الحياة ..

سامحني بمقدار ما احببتك . بشعة هذه الحياة . بشع هذا العمر . انني اعجز اعجز . ارجوك .. دعني اقتنع انني عاجزه لا استطيع . اريدك لأنني اريد الحياة ، ولكنني لا امتلك هذه الحياة . سأقول لك السر .. التعاسة :

اعلم يا عاصم انني ...

يا الهي .. انني اتصبب عرقا .. كم اموت في الثانية آلاف المرات .. فكيف افقدك ؟!

لكن .. لا اريد ان اظلمك ، وقراري لاجدال فيه ، ولا رجعة عنه . لا نستطيع ان نجعل الوهم حقيقة .. انت حقيقتي الوحيدة ، وسري هو الوهم ، أرأيت كيف اعكس الحقيقة من اجلك .. من اجل حبي ؟!

من اجلك يا عاصم .. من اجل النقطة الداكنة في صدري التي حدثتك عنها .. اصغ جيدا وتصبر ، فاحتمالى يفوق فجيعتك .

عاصم .. يا سيد عمري : لا استطيع ان اربط حياتي بحياتك ، فأنا نهاية .. انا طريق مسدود .. انا موت يا عاصم .

عاصم .. سأقول لك السر : ان النقطة الداكنة في صدري هى قلبي الذي احبك وعشقك كأنك الحياة المفقودة .. انت الحياة ، ولكنني بلا مستقبل .. بلا عمر يا عاصم . ان صمام قلبي مسدود لا يعمل .. لن اعيش اكثر من عامين .. مضى اولهما وانتظر انتهاء الآخر . اعطاني الأطباء حكم الأعدام بين يدي ، وتركوني اترقب اللحظة الأخيرة ، واخرج لساني للعلم ، ولأنتصاراته العظيمة ، وقد جئت يا عاصم في اللحظة الأخيرة ، وحبي لك يمنعك ويمنعني ان نستمر في العدم !

لا تقل ان الأطباء يخطئون .. اعرف هذا الوهم الآخر ، لكن شعوري لا يخطىء .. احببتك بكل العنف الذي ساد انتظاري للموت !

عاصم .. وداعا يا اجمل لحظة في عمري .. هي كل العمر .. لا تستأنف الحكم .. فالحقيقة تفوق الوهم) !!

●●

وتراخت اصابع يده .. تراخت !
وسقطت الرسالة فوق بقايا الناس .. كأنها بقايا الحياة .. فوق

الاحجار ، والرمال اللزجة ، والموج الواهن المتسكع على وجه البحر ..

انه لا يدري .. لا يحصد الآن الا سحل الحياة ..

لم يتبق له الا نظراته والأصداء ، ولم تعد اكثر من خروم متشابكة معقدة كما شبكة الصياد .. طوح بها في اللامدى .. في لا نهاية هذا البحر الممتد امامه كما السر .. كما التعب .. لتختلط النظرات بحروف الرسالة .. بترددات الموج الخافتة !

ليلة الريح

■ كل الأشياء المجردة ... حقيقة ، والحب لم يكن حقيقة كاملة .. انه نصف الحقيقة دائمـــا !!

□□ الكلمات كانت ترحل .. مثلما الخفق في صدره ينسحب مجروحا بالوهن ويذوي ..

كانت ليلة الريح تلك .. هبت عاصفة من بين ضلوعها الى نبضه وضلوعه المرتعشة .. تحاول أن تزرع من جديد في أعماقه : العهد .. الذكرى .. عمق الحس .. التحديق في الآتي !!

إنه يسبل جفني عينيه كأنه يصغي إلى العهد .. كأنه يحيا الذكرى في هذا التجسيد لأمتع لحظات عمره . هذه اللحظة هو يموت .. يعرف أنه يموت الآن فوق سرير هذا المستشفى بعد أن أعلن الطب عجزه التام أمام سريان « السرطان » الى دمه ، فلا فائدة حتى الآن من أبحاث العلم ، ومن محاولة الأطباء للانتصار على هذا الداء اللعين .

ولكنه يعرف ايضا أنه يموت بعيدا عن بلده .. عن حزمة اهله .. عن مراتع أحلى حياة ذاق فيها طعم السعادة ، وأحس فيها بعطاء الحب المدفور في ضلوعه المرتعشة الآن بقوة الموت ..

وشرع جفنيه في صعوبة ، وهو يدلج الى رحاب الموت هادئا .. الملامح مضطربة ومموهة .. وهو يكاد أن يتعرف بالنظرة الأخيرة على وجه أمه المغسول بالدمع ، وعلى وجه أبيه المغضن

بالحزن والحسرة على هذا الشباب الذي يودع الدنيا في اللحظات الأخيرة . أعز الناس كانا حول سريره يتمتمان بآيات من القرآن للتصبر وللتجلد .. لكن وجها ثالثا ينحنى على صدره .. لا يكاد يتبين ملامحه .. يحاول ان يصفي نظرته .. أن يجلوها ليرى الوجه الذي تحفره الدموع .. فلمن هذا الوجه ؟!

أتكون هى بذاتها .. هل أتت أخيرا لتودعه للأبد ؟!

أيكون هذا وجهها .. هي « نغم» تشهد موكب رحيله من الدنيا بعد أن أعطاها وهج العمر ، وأعطته الفرح بالحياة وهى معه ، ثم تركته للفراغ ، وللحسرة .. لا يفزع من هذا الموت القادم ؟!

ترى .. ماذا تريد الآن ؟!

خمس سنوات مضت منذ انفصلا بعد خلاف تافه .. لكنه عصف ذات ليلة بكل ما يحمله الواحد منهما للآخر من عشق .. عصف بعامين شربا فيهما الهناء داخل عش حالم دائما !!

ــ (أبذرك في تربتي يا نغم .. كما تبذر الآهة في صدر الكليم الضائع ، وقد كنت ضائعا حتى وجدتك . تذكرين ميلاد ذلك الشعور بالوجود يوم جئت أضع الدبلة في إصبعك وأبي بجانبي .

وابيك يبتسم ويدعوك أن تجلسي بجانب خطيبك وزغاريد امك وأمي في صالة الفيلا كزخات المطر . يومها ــ يا نغم ــ شعرت انني ولدت ، وأن وجهك الذي أتطلع اليه كان نافذتي إلى الحياة الأحلى) !!

في أي زمن حدث هذا البهاء في العمر ؟!

فواصل الأيام .. لا تتشابه مع فواصل الاحساس .. ذلك لأن فواصل الاحساس تعميق للوجد ، او إغراق تام له !!

في ذلك اليوم .. كان في صدري امتلاء بالحياة .. كنت أحاول تفسير الاقتناع بالنظرة التي تأتي من الداخل إلى الداخل ورغم ذلك فلا بد من الخلاف ، ولم أكن أظنه باترا حاسما يفصل روحي عن

حياتي ، ويبذرني حنينا تعيس المسافة والزمن .. اناديك فيه ولا اجدك . ابحث عنك لأعيدك الى عشنا المنشرخ فلا القاك . واتذكر كثيرا ما قلناه في تلك الليلة العاصفة .. ولكني نسيت السبب الذي صعد الخلاف . فدفعك للخروج إلى بيت أهلك غاضبة ، ودفعني بعد يومين أن أخضع لرغبتك فأكتب لك ورقة الانفصال . نسيت السبب لأنه تافه بمقارنته بذلك العشق الرائع الذي حيينا به عامين ..

في تلك الليلة التي لا أنساها .. أذكر حدة النبرة في صوتك ، وصوت الحدة في نبرتي :

ـ (أكره أن تصفيني بالغرور .. لو كنت هذا الموصوف ما عرفتك لأن زهوة جمالك لا ينافسها غرور آخر !

ـ قالت : كل الأشياء المجردة هى حقيقة ، والحب لم يكن حقيقة كاملة .. انه نصف الحقيقة ، فهو مزيج من اللمس ، ومن التخيل ، ومن الهمس ، ومن غنى الأحلام . وأنت معي نبحث عن الحقيقة الكاملة ، وأنا لا أطيق أن أراك تتفحصني كدمية عندما تكون جالسا بجانبي وخواطرك مسافرة إلى أمكنة لا أعرفها .

ـ قال : تريدين نصف الحقيقة دائما .. تطلبين الآن أن ننجب طفلا وأرى اننا نسبق الزمن .. وعلينا قبل ذلك أن نضع قاعدة راسخة للحياة المادية .. لمستقبل من سنكون سببا في دخوله إلى الحياة . تطلبين ايضا ان نقيم الليل بالسهر والمرح وأنا لا أطيق ذلك دائما .. لأنني لم أعد أثق بالناس .. لم أعد اصدق تلك الابتسامات الملونة ، وذلك الضجيج المنافق .. بل أريد أن نكون أنت وأنا معا .. وحدنا نحدق في نجمة واحدة ، ونناقش حياة المستقبل بلا ركض لاهث ، وننام مبكرين لأصحو حبا في العمل . واطلب فيك سيدة البيت التي اجدها كلما عدت بدلا من أن أعرف بذهابك إلى سهرة لا تنتهي إلا في الساعات الاولى من الصباح !

ـ قالت : أنت تقتات الحزن .. أكثر لحظاتك ساهما مبتعدا بخواطرك .. بينما حياتي التي تعودت عليهـا هي المـرح ، والانطلاق ، والتخلص من العقد والمواقف الدراميه .. لم أعد اطيقك أبدا .. ليس حبا هذا ولكنه عبودية . أريد أن أنطلق .. أن أمرح أن أرقص وأسهر فلا أعرف مسافة عمري ، وأرفض أن أقطعها في التحديق ، وأنت لا تعرف إلا التحديق فقط. لقد زهقت زهقت .. فاتركني) !!

وحاول أن يشرع جفنيه ثانية .. بينما الموت يأخذه رويدا الى رحابه ..

كان يحاول ان يرى وجهها الحبيب إليه .. أن يودعه في لحظاته الأخيرة لينام مرتاحا والى الأبد ، فقد كانت السنوات الخمس .. شاقة ، جافة ، هشة كورقة الخريف .. مرت به عمرا فكأنه فيها لم يكن الشاب ثلاثيني العمر ، وانما تحول الى ركام .. تناثر اللون الأبيض في أكثر شعره ، وزحفت التجاعيد الى وجهه . سنوات مرت به حالة ، او ملابسة ، ثم اقتناعا .. اقتنع أن ما ذهب لن يعود ، وأن الهروب عظمة الخائفين ، وأن اسقاط الاصرار على ما اردناه أو اخترناه .. هو الحاجة الى الاستقرار على شيء .. بدواعي شيء آخر مفروض !!

لحظة موته الآن ،وهو يرفع جفنيه ليرى حياته التي خذلته .. يرى « نغم » التي كانت تمثل امتلاء النظرة الأخيرة له الى الحياة .. تماما مثل اللحظة التي رآها فيها أول مرة ، وكانت تمثل النظرة الأولى له الى الحياة ..

لقد تركته يومها ، ونالت الانفصال الذي أصرت عليه ، وحزمت حقيبتها ثم رحلت .. سافرت الى أمريكا تلحق بخالها الذي يدرس هناك ، واستقرت عنده تواصل دراستها ، وتحقق لنفسها أن تحيا الحياة التي قالت انها مفقودة في عشها الزوجي معه .. انطلقت ،

وسهرت ، ورقصت ، وعاشت الضياع والفراغ معا .. عاشت الليل نهارا ، والنهار بدرا .

واعتقدت « نغم » انها قد انقطعت نهائيا بأخبارها عن « احمد » الذي أحبته وضاقت بلون حياته ، فكسرت عن قلبها طوق الحب ، وجفته ، وسافرت الى البعيد لتنساه ، ولينساها .. لعلها تعثر على الحياة التي تريدها !

لكن « احمد » كان يعرف عنها كل شيء .. يتابع اخبارها .. يركض خلف جنونها بدون أن تدري بما يفعله ، وبدون ان تراه .. لقد احب مرة واحدة ، وكانت هي تلك المرة الواحدة . كان يعاني احيانا من الحنين المستعر في صدره .. كان يتوق اليها كقطرة ماء تسقط في جوف ظمآن .. كان يفكر أن يضعف ، ويذهب اليها في امريكا ، ويعيدها ، ويحقق لها ما ارادت : الطفل . والانطلاق والسهر ، والرقص ، والحياة اللاملتزمة . كان يفكر قليلا .. لو اعادها وأعطاها الطفل الذي تريده .. من الممكن ان تنشغل به ، وتتنازل عن مطالبها الأخرى ، وتلتفت الى بيتها ، واستقراره . وتواجدها فيه دائما . لو ذهب اليها .. فهل ترضى أن تعود .. أما زالت تحبه ؟! .. لو كانت تحبه ما تخلت عنه . ربما الغربة قد فعلت في نفسها التغيير وربما أخذتها الى الأبعد وبعثرتها .. ولكنها قد تعود ..

يا لحظة عودتها .. كيف سيأخذها إلى صدره .. ماذا ستقول له .. ما الذي يمكن أن يقال لحظتها عن الأيام ، والامتزاج ، والعهد ، وعمق الشعور ؟!

ـ (عندما أحدق فتظنين أني لا أفكر فيك .. تكونين في خاطري دائما .. ملامحك قناع وردي شفاف .. ألبسه فأرى الحياة أجمل وأروع . وأنت معي مثلما أنت بعيدة عني .. أنت دائما نبضي ، وتواجدي في الزمن وفي العمر وفي الشعور) !!

لكنه لو ذهب اليها .. فستعود معه بكبرياء مستمد من انتصارها

عليه . لكن الحب ليس فيه انتصار .. الحب نصف الحقيقة .. إنما هي تريد الحقيقة كاملة ، واذا ذهب اليها فقد وجدت تلك الحقيقة كاملة ، واحتوته طائعا لها في كل شيء . لا .. انه لن يذهب ، ولماذا لم تعد هي ؟!

وأمضه صراع قاس .. في كل ليلة يسهر حتى نجمة الصبح .. يتخيل ، ويستعيد ، ويحلم ، وتفر دمعة من عينيه .. كأنه يناديها .. بل إنه يسترجع ذلك البوح الذي كانت تسمعه من بين ضلوعه في الشهور الأولى من زواجهما :

– (يا نغمي ..ياكل الشوق المتجدد دائما في حنايا متالفة على حبك .. أنت نعمة عمري فلا يشوهك الزمن ، ولا يضعف حبنا الاصرار الأحياني المجنون على رغبة تافهة !

– لا يا أحمد .. كنت طفلة فكبرت في عينيك وصدرك. كنت اعتقد أن الحب يكون قبل الزواج .. صرت ادافع بأن الحب بعد الزواج أعمق وله قاعدة .. عندما رأيتك أول مرة أحسست انني اعرفك يوم تزوج أبي من أمي .. روحان توأمان ولدا معا ، فليست لي حياة بعدك ، وليس لي عمر غيرك . سنختلف يا حبيبي على التفاهات مثلما يختلف كل الناس ، ولكننا لن نفترق .. أبدا حتى لا أموت .. فأنا بدونك موت يا أحمد !

– لا تتحدثي عن الموت .. هات يدك تدلني على درب الحياة .. « اتركني أزهر في الخرافة » فأنت خرافة عمري .. أنت اسطورة زماني. أدخلك وأرفض أن أخرج منك) !!

ولكن « نغم » تركته في ليلة عاصفة .. أسقطت الحب في لزوجة خلاف لم يترك لهما فرصة للتحديق ، وللتفكير ، ورمت بنفسها في رغباتها ، ورمته في فراغ العمر بقعة من سراب لا ينتهي !!

وقوي في نفسه عناده ، ومكابرته ، وتمسكه برجولته ..

وقويت في نفسها رغباتها ، وجنونها ، وتخليها عن الطفلة التي كبرت في عيني من احبته !

وفي كثافة الرحيل جدف ، وخاض المعاناة حتى اسقمته .. ولكن الرحيل لم يستطع ان يقتل الصورة الجميلة في نفسه .. بقيت تلك الصورة برغم السنوات الخمس ، وبرغم النوى ، وبرغم الحسرة على أعز ما فقد .. بقيت الصورة زاده .. بينما هي أيضا تصدعه ، وشروخه ..

ــ وقبل أشهر .. قال له الطبيب : لا بد من فحص عام ، ومن تصوير بالأشعة لداخلك !

ــ وابتسم في وجه الطبيب .. وهو يقول : داخلي ؟!
إنني أعرفه جيدا .. إنه أصدق ما يميزني . إن الذي فيه أراه بوضوح .. أكثر مما ستراه في الأشعة !

ــ قال الطبيب : ولكن لا بد يا احمد .. إنني اشك في شيء !
ــ قال : لا يهم يا دكتور .. لم يبق شيء .. خلاص يا دكتور !!
لكن الطبيب أصر على ما طلبه ، وحينما أمسك بالأشعة تميزت ملامحه بالكآبة ..

ــ قال أحمد : ماذا ترى يا دكتور ؟!
ــ قال الطبيب : أرى أن تسافر إلى أمريكا .. لا أنصح أن تذهب الى لندن فالطب فيها يتأخر .

ــ قال أحمد : وهل الحالة خطيرة الى هذه الدرجة ؟!
ــ قال الطبيب : أرجو أن تسرع يا أحمد .. فالوقت ضيق جدا !

لكنها أمامه الآن .. بجانب السرير في أحد مستشفيات أمريكا .. في المنطقة التي هربت اليها ذات يوم قبل خمس سنوات .. لا تسأل عنه ، ولا تلتفت اليه ، وقد جاءها أخيرا .. واخيرا قرر «أحمد » أن يقترب من قطرة الماء . أن يأتي اليها بكل ضعفه ، ولكن ليس

ضعف إرادته ، وانما ضعف جسده المتهالك المسجى .. المدلج إلى رحاب الموت ..

– (ها أنذا جئتك يا «نغم » .. وأرفض أن آخذك اليوم ، لأنه ليس عندي ما أعطيه)!!

جاء « احمد » يحمل بين ضلوعه داء «السرطان» وقد سرى إلى دمه ، ولا فائدة ..

بل إن « أحمد » سعيد جدا هذه اللحظة .. أليست بجانبه .. وسوف يموت ورأسه فوق ذراعها ؟!

– أحمد .. اسمعني صوتك .. كلمني يا أحمد أرجوك .. سامحني يا حبيبي !!

وبتثاقل مرهق ..شرع جفنيه ليرى وجهها .. هذه اللحظة فقط يريد أن يتكلم .. لا يهم ما نصح به الأطباء أن لا يتكلم.إنها بجانبه .. رأسها فوق صدره .. فوق وجهه .. دموعها تغسله الآن وتكفنه ، وتواريه مثواه الأخير .. أليس صدرها بيته ؟!

اراد أن يتكلم .. تحركت شفتاه ، ويده مخبأة بين كفيها :
– لا تتكلم يا أحمد .. فقط قل إنك ستعيش ، وسأعود معك ، وأبقى في البيت ، ولا أريد طفلا .. أنت طفلي ، ورجلي ، وعمري ، تعبت من السهر والرقص والضياع يا أحمد .. قل إنك سامحتني .. قل إنك نسيت الخمس سنوات .. صدقني كنت أريد أن أنساك وعجزت . أردت حتى أن اكرهك وعجزت . ملأت حياتي بالصخب والضجيج .. فكان هدوءك الذي اعرفه اقوى من الصمت والضجيج .. أحمد .. أحمد !!

رفع يده اليسرى فوق يديها اللتين تخبئان يده اليمنى وغطاهما .. إنه يبتسم لأول مرة بعد خمس سنوات .. انه يستقبل الموت بلا خوف .. وبصوت واهن قال لها :

ـ هذه اللحظة يا « نغم » اقتنعت انني سأحيا بالموت !
ـ قالت : أحمد .. لا تقل هذا أرجوك .. إنك تعذبني أكثر يا أحمد !

ـ قال : أليس الموت هو الذي أعادك الي .. هو الذي جعلك تقطعين خطوات الرحيل والهروب وتعودين الي ؟! .. لو لم تسمعي أنني احتضر ما رأيتك ثانية يا نغم !

ـ قالت : لا تقسو علي يا أحمد .. أما زلت تذكر تلك الجملة التي قرأتها همسا في أذني ونحن نجلس في بيتنا في جدة؟..كنت تقول إن هذا التشبيه يعجبك : «واحة الصبح المعزولة » وقلت لي : انك أنت واحة الصبح فلا تعزلي نفسك عني ولا تعزليني عنك .. لقد كنت دائما وأنا بعيدة منك «واحة الصبح المعزولة » عن كل شيء عندما كنت أمارس كل شيء .. فلا تذهب يا أحمد .. لقد عدت إليك ، فعد الي يا أحمد .. لا تخذل واحة الصبح !!

ـ قال : لم أخذلها يوما ، وإنما كنت منجذبا إليها حتى وهي تخذلني . انظري يا «نغم » هذه الابتسامة على شفتي .. ليست هي انتصار الموت على رغبتي في الحياة ، لكنها انتصار الحيـاة بقوانينها ، وبروابطها على رغبتك التي كانت في الضياع والهروب . طويلا عشت يا «نغم» ، وكانت حياة كبيرة في داخلي تغذي نبضي وفكري .. حياة التأمل التي كرهتها أنت .. حياة الشوق لك حتى وأنت بجانبي .. حياة الوفاء لما يعطينا إياه نصف الحقيقة ، فليست هناك حقيقة كاملة يا حبيبتي !!

ـ قالت : احمد أسكت .. أرجوك . لقد تعلمت .. علمني فراقك .. علمني الضياع والهروب .. لا تتكلم يا حبيبي حتى لا تتعب أكثر ..
ـ قال : قرأت لك عبارة قبل أشهر ، وكنت راحلا إليك .. إلى هذه الأرض التي كثيرا ما راودتني نفسي أن آتي إليها بضعفي وانهاك كبريائي لأستعيدك ، ولكني كنت أعرف انني آت لأموت هنا ..

ـ قالت : أحمد .. أرجوك أن تسكت :

ـ قال : قرأت هذه العبارة : « وجهك الزمن البعيد .. وأنا عالم المسافة القصيرة » .. ها نحن الآن معا يا «نغم» استعدتك اخيرا يا حبيبيتي ..

ورفعت رأسه إلى صدرها ..
كانت آخر مرة سقط فيها رأسه .. على صدرها مات أحمد !!



□ إن حياة الناس تكبر في الأسرار ..
وتتضاءل في الرثاء !! .



عاجز هو عن الدخول في الجلد الزائف !
تعذبه الحيرة بعنفها الذي يشرخ أعماقه ، ويتلوى في احشاء هذا الليل فوق سريره وحده ..

جاء منسحبا من النهار .. وقد غادر الشوارع ، وحلقات السمر التي تتعالى اصوات أصحابه فيها صارخين :
ـ أربعه حكم . ألعب يا غشيم . أجننك !

ـ ويرد صوت آخر : واحده ميه .. اكشف ورقك .. اللعبة خسرت !

عدة مرات ربما يستطيع أن يحصيها على أصابع يده .. تلك التي حاول فيها أن يسهر ، وأن يجاري أصدقاءه في لعبة قتل الوقت ، او قتل الملل ، وكان يقول لهم ساخرا :

ـ انتم لا تقتلون الوقت .. انتم تقتلون قدرة الانسان فيكم !
كان يتطلع الى وجوه اصدقائه ، والى وجوه زملائه في العمل ، والى كثير من الوجوه العابرة في الشوارع .. فيشعر لحظتها وهو يحدق في تلك الوجوه ، وكأنه يغمس عمره في الحياة كما كسرة خبز جافة .. وكأنه كان يريد أن ينبش صدور الناس ليحصى ما تبقى

داخلها من صدق ، ومن حنان ، وان يتسلق اذهانهم ليبصر ما علق على جدار الرأس من المراثي ، وأن يدق على ضلوعهم لعله يستعيد همسة شاردة منها . يرغب فعلا أن يجمع دموعه فيغسل بها ذلك كله وأن ينثر ابتسامته فيسترد أشياء كثيرة ضاعت !

كان يتأوه في هذا الليل وحده ، وتردد الجدران أصداء تأوهاته ،

كانت تؤرجحه نوازع مختلفة .. جعلته يقف في وسطها مشدودا من الجانبين !

إنها الحب ، والمعاشرة ، والألتقاء ، والأختلاط .. وتتصاعد آهته أكثر .. يخاطب نفسه :

– اننا لا نقدر أن نجرد ذواتنا من هذا المزيج .. لأننا لو فعلنا .. لو تأكسدنا .. نتحول الى خارطة عليها جغرافية الممارسة ، ومناخ الأصداء الضائعة ، وتضاريس التعامل المحصور في الرغبات أو تفرد الذاتية !

لقد خاض الكثير من التجارب .. بعضها انتهى تافها ، وبعضها الآخر ترسب في داخله كوجع يشتد عليه ما بين حين وآخر !

ويعرف أن التجارب العميقة لا يمكن ان تتلاشى بنهاية .. لا تدفع الانسان في محصلتها أن يقول : ليتني لم أفعل ، فهذا يعني الندم ، وهو – حتى الآن وهو يبلغ السادسة والعشرين – لم يندم ، ولكنه يردد كلما خلا الى نفسه فيقول :

– لا بد لكل تجربة في حياتنا أن تخضع زمن الانسان للمقياس الذي تتشكل منه مجموعة التجارب !

إن حياة الناس تكبر في الأسرار ، وتتضاءل في الرثاء !

وفي وحدته هذه يشعر أنه كثيف الوحدة .. متضاعف في الرثاء ..

كان يصغى الى الحيرة في نفسه .. يتمنى لو كان يعرف حقيقتها ؟!

ومن صفاته التي احبها في نفسه ، وجافاه الناس بسببها : اتهام أصدقائه له أنه إنسان « وحداني » يميل الى العزلة ، والخلوة الطويلة الى نفسه !

إنه لا يقحم نفسه في امور الناس .. لا يتطلع الى محاكاتهم .. انه شيىء سلبي في رأي الناس ، ولكنه في رأي نفسه : انسان يتاخم الشفق ، ويجرح الأبعاد ، ويصير المسافات من العمر وجعا في الكشف عن الحزن ، وألما في الأمتلاء من الشعور !

ويتذكر تلك الأمسيات .. عندما يعود الى البيت مبكرا ، ويرى شقيقته الوحيدة قبل ان تتزوج وهى تشاهد التلفزيون وبجانبها مجلة ، والخادمة تغسل الأوعية في المطبخ ، ويسلم على اخته بفتور ، وتقترب منه تسأله :

ــ هل أحضر لك العشاء ؟!
ــ ويقول لها : اخبار نفسيتك ايه ؟!
ــ وتقول له : عايشين !

ويعتذر لها عن العشاء ، ويدخل الى غرفته مستأذنا منها بتعبه ! لكن هذا المساء سيطول حواره مع نفسه .. وكأن أنفه قد تورم .. لأن الناس قالوا عنه : انه لا يرى غيره . اما احساسه فكأنه يتبلور تجربة جديدة قادمة تختلف عن كل ما عبره او تجاوزه ، وعن كل ما شعر به وتلاشى ، وكأنه ايضا يحاول القفز فوق الحيرة .. ان يفتتها ليخلص الى حل ، او الى قناعة بكل ما رفضه في الماضي ، والى تقبل لكل ما سيأتي !

وبكل ملابسه .. قذف بجسده على السرير يحفر بنظراته سقف الغرفة .. انه يحاول في هذا التأمل ان يطرح الزيف الأعتيادي المكتسب من علاقاته بالناس .. فالانسان اصبح في ظروف هذا العصر يخضع لهذه القاعدة :

ــ أنا لست مع نفسي ، ولست ضدها !

وفكر طويلا .. مضت ساعة من الزمن ، وساعتان ، وهو لا يحس بهذا الزمن السلحفائي .. وهمس لنفسه :

ـ ترى .. هل قلت انها تجربة ؟!

نعم .. انها تجربة ، ولكن .. وما كانت التجربة لا اكثر من مغامرة تدغدغ الذات ، وتنعش الأنانية بعض الوقت ، وتبرد الغريزة ، ثم تستدعي فينا الدواعي النفسية مثلما ننادي القطط لتألفنا !

وقرر الآن ان يفعل شيئا :

ـ الآن يا مجنون ؟.. اثبت . المزيد من التفكير لئلا تندم !

كان يحادث نفسه كمخبول .. لكنه يريد ان يقطع بالرأي ، ويحسم التردد ، ويختبىء في جوف حصان طرواده ليختار الوقت الذي يجعله قادرا على الوثوب فوق ظهر الحصان ، وينطلق بأحلامه .. حتى احلامه كان يعاملها مثل الناس .. بالوحدة ، وبالعزلة ، وبالهروب منها !

وعاد يتساءل : ولكن .. هل هي مغامرة ، ام هي تجربة تختلف عما سبقها ؟! أوه ... اللعنة على هذه الحيرة . كل الأسئلة كالشوك ، وأهم ما يحرص عليه أن لا يخسر مستقبله !

انه ناجح ومتفوق في عمله ..

وفي حوافزه لبناء الانسان المتكامل في داخله .. يعتقد انه قد حقق شوطا بعيدا .. درس ، وتحصل على شهادة جامعية ، ونمى تجارة والده بعد رحيله عنه ، ويحب القراءة بقدرة تجعله يفصل بين طموح التجارة ، وبين ضرورة غذاء العقل والروح ، ولكنه لا يريد أن يصبح نجم مجتمع ، فهو يكره الزحام ، وفي خلواته مع نفسه يبلغ الى مراقي الأفكار المشعة ، والشعور الذي يرغد نفسيته ويغذيها !

ولكن .. الى متى يزيف احلامه ويدعها تغذ في المتاه ؟!

وهل كل احلامه محصورة في وجود انثى في حياته ؟!

ربما الآن .. هذا هو المطلب المباشر والهام ، فحياته المادية ناجحة ، والحمد لله كلها متيسرة وزيادة في الأرباح . وهذا العام استطاع أن يثبت قاعدته التجارية ويكسب الكثير .. وقبل ذلك كان منقوعا في الاحتياج المادي .. او انه كان انسانا متوسط الدخل .. رضي بما وجد عليه نفسه بعد ان رحل والده وترك له تجارة مضعضعة بعد عدة سقطات وخسائر . ولم ينل اليأس من عزيمته وتصميمه ، وخرج من الأزمة ، وانطلق كرجل اعمال ناجح !

وعندما مات والده .. لم يكن يشاركه في بيته سوى اخته التي تصغره ، وقبل عام .. احتفل بزفافها الى شاب يحمل الدكتوراه ، وتنفس الصعداء ، فالآن قد ضمن مستقبل اخته وحياتها ، والآن يستطيع ان يفكر في نفسه ، وان يكمل النقص الذي يجعل حياته باهتة ، والآن يختار الأنثى التي تملأ قلبه وحياته بالحب وبالحنان وبالأطفال ، وترسم معه درب المستقبل الجديد !

الآن .. يمكن ان يطوح بكل التجارب السابقة المؤقتة ، ويتلفت بحثا عن التجربة العميقة التي تصبح بذرة لشجرة العمر !

وحينما كان يختال في امانيه .. ايقظه جرس الباب من هذه الرؤى الرومانسية :

— ترى .. من يقرع الجرس ، فأنا لا اتوقع زيارة أحد ؟ .. وأكثر اصدقائي ينفرون من زيارتي ، فانا لا اتحدث في الكرة واكره ذلك ، وانا لا احب كثيرا ان استعمل الوقت كثور هائج اعامله كمصارع الثيران ، فأما ان اقتله بدون ان استفيد منه وبوحشية ، واما ان يدهسني بحوافره وأقضى !

وتثاقل على نفسه .. يخطو الى الباب وصوته يتقدمه : حاضر سأفتح !

ثم كانت المفاجأة .. اخته تقف امام الباب وقد بللت الدموع وجهها ، واحتضنها ، واجلسها على حافة سريره حائرا فزعا .. يسألها بالحاح :

ـ ماذا حدث .. تكلمي .. اخبريني !
وما زالت اخته تواصل البكاء بنشيج :

ـ قال لها : لم تمض على زواجكما ستة شهور بعد .. فماذا حدث ؟!

ـ قالت اخته : انني لا اطيق هذا الرجل .. انه اناني في كل شيء . ان شهادة الدكتوراه التي يحملها قد رمته ابعد من سور منزله ، فهو لا يتكلم الا عن قيمته في المجتمع ، وعن علمه الواسع ، وعندما يكتب مذكرة في البيت .. اصحح له فيها اخطاءه النحوية !

ـ قال أخوها : لا تبالغي وانت في غضبك ؟!
ـ قالت : صدقني ، فأنا لا اكرهه ، ولكن طريقته تجعلني امقته ، ولقد تحملت الكثير من سخافاته ، لكنني ما عدت احتمل طالما انني اسمعه وأراه يتكلم من انفه .. ان له انفا اكبر من الدكتوراه ، وفي نفسيته قدرة على تعذيب عفوية الآخرين بما لديه من عقد لا تحصى !

ـ قال لها بعد ان هدأ توترها : عودى اليه ، فهذه مهمتك .. ان البسطاء دائما هم اصحاب الأدوار الصغيرة التي تؤثر وتغير في التصرفات المرهونة بمركز ، او بحالة ، او بانتفاخ . احتملى عدم قدرته على ان يكون انسانا طبيعيا .. بقدرتك على البقاء بجانبه في واقعك الانساني ، ودورك كزوجة ، والا .. فسوف يطلق كل النساء في ايام الزواج الأولى !

●●

وأحاطته الوحدة من جديد .. داخل جدران الغرفة الأربع . لقد استطاع ان يقنع اخته بدورها الصعب وهو يعرف انها تحب زوجها ولا بد ان تنجح بالحب !

واختال في تحديقه وجه الأنثى الذي حفر في عينيه ، وفشل ان يبدده !

ترى .. هل يتحول ذلك الشعور الذي احس به يومها ينغل في عروقه .. فيصبح لا اكثر من ذكرى جميلة تطوف به في ليالي الوحدة والملل ؟!

انه يستعيد ما كان :

ـ (قبل اربعة شهور .. كان ينجز عملا تجاريا له في ايطاليا ، وشعر بعد اتمام صفقته التجارية بالرغبة في الراحة ، وبعفوية قطع تذكرة الى لندن .. لعله يقضي وقتا طيبا في الريف الأنجليزي ، وفي اليوم الأول له في لندن .. اراد ان يطوف المدينة ليتفرج ، ثم يختفي هاربا في الريف . واتعبه التجوال فدخل متجرا كبيرا ، والتقى هناك بزميل قديم له في الدراسة ، وتعارفا بعد تلك السنوات الطويلة ، وقدم اليه صديقه امرأة في الخمسين : امه ، وفتاة في العشرين : اخته ، وساروا جميعا في حوار متشعب غير مترابط ، واصر صديقه ان يتناول معهم الشاي في مسكنهم !

وهناك .. سألها عن دراستها ، وشعر انه يضطرب .. لقد ارتج عليه وهي تقول له :

ـ حصلت في بداية هذا العام على الدكتوراه !

وخفضت رأسها حتى كاد يلامس صدرها النافر ، وقد شاع في وجهها خفر العذارى .. اما رأسه المرفوع ، فيحس به متطوحا في فراغ شاسع ، ولكنه حاول ان يتماسك ، وسألها مجددا :

ـ ماذا كانت رسالتك ؟!
ـ قالت : اخذتها في الأدب الانجليزي !
ـ قال مبتسما : اما انا فلا املك الا البكالوريوس ، ورجل اعمال يحاول ان يكون ناجحا :

ـ قالت : اللغة الانجليزية تفيد كثيرا في التجارة !
ـ قال ضاحكا : بشرط ان لا نتكلمها باسلوب شكسبير مثلا) !!

●●

وحمل معه الى البلد اصداء تلك الضحكات البريئة الصادقة ، وقد تجمعت من قلبين .. احدهما يصارع اشتات الحيرة والحنين ، والأسئلة التي لا تنتهي !

كان يتكىء برأسه على الوسادة ويحـــدق في ظلال الضوء المنعكس :

ـ هل هي مغامرة .. هل هي تجربة .. هل تكون مجرد حلم يتحول الآن الى وهم ماتع بهيج ؟!

الأسئلة لا تكفي ، واستطرد يحاور نفسه :
ـ هل هي الحياة الحقيقية القادمة .. وهل اخرج الآن من داخل حصان طرواده وانطلق لخطبتها ؟!

قدماه ترتعشان .. قلبه يدق كمنفاخ .. كجرس يضغط عليه اصبع قلق :

ـ ترى .. هل يمكن ان تكون شهادة الدكتوراه في نفسها .. مثل شهادة الدكتوراه في نفس زوج اخته ؟! .. كان لا بد ان اكتشف .. ان اجرب عفويتها .. ان اسبر اغوارها .. ان الاحق افكارها عن المستقبل والحياة الزوجية !

وكيف يكون التعامل بين انثى تحمل الكتوراه ، ورجل لا يملك الا البكالوريوس .. هل يشكل هذا فارقا ، وتأثيرا على العاطفة الانسانية ؟!
ابدا .. لماذا هو يصعد الحكاية بهذا الشكل المدمر ؟!
ـ الآ تهدأ .. فكر طويلا لتصل الى قناعة تامة ؟

يحادث نفسه كما مجنون ، ويرد عليها :
ـ واذا هدأت وانتظرت ، وطارت الطيور وخطفها من هو اسرع مني خطوة .. ما الذي افعله حينذاك .. كيف اكون بعدها ؟!
بعدها ؟! .. انت تحبها بالفعل ، ولكن ... الدكتوراه .. أوه .. أوه !!

●●

وقرع جرس الباب !!
ـ يا ألطاف الله .. اللهم اجعله خيرا ..
وخلف ضلفة الباب كان وجه اخته !
عرك عينيه يحاول ان يثبت رؤيته :
ـ ماذا ايضا .. فشلت خطتنا ؟!
دخلت اخته هادئة لا تنبس بكلمة .. وهو يركض خلفها متسائلا :

ـ اريد ان ارتاح .. لماذا هذا البرود ؟!
اضاءت الابتسامة وجه اخته ، واخذت يده الى يدها قائلة :

ـ بارك حياتي يا اخي .. اخيرا .. لقد تخلصت من مقتي لزوجي . كان كل تفكيري انني احبه حقيقة ، وحاولت ان افهمه ، وبسطت له كل شيء في نفسي ، ففهمني ، واقنعته بالنقاش ، وان كل انسان يحمل عيبا ، ولا بد ان يعالج عيبوبه وهي ستقتله ان لم يذوبها ، ولا بد ان يواجهني بعيوبي ، ونحن الآن من اسعد الناس .. لقد انتفعت بكل ما قلته لى .. لقد جئت اليك بفرحتي ، فأنا حامل !!

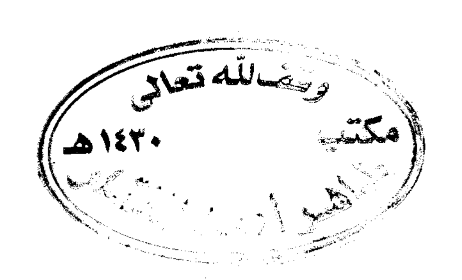
وركض يجري الى غترته وعقاله ، ويرتدي ثوبه على عجل ، واخته تفغر الفاه مندهشة :

ـ ماذا حصل يا اخي .. ما الذي ستفعله ؟!
ـ قال لها : انت حامل ، وهذا خبر سعيد ، وانا القيت كل حملي وهذه نتيجة سعيدة .. لقد نجحت التجربة .. نجحت !

وانطلق يجري نحو باب الخروج ، واخته تلاحقه وتنادي عليه :
ـ اخي .. ما هو الذي نجح .. اية تجربة .. الى اين أنت ذاهب ؟! .. تمهل فتأخذني معك الى بيتي !

صوته بقربها في العربة يغني : ذاهب الى التجربة الحقيقية .. ألا يسعدك ان اتزوج الآن ؟!!





□ فهرست :

□ للمؤلف :

١ ـ حياة جائعة
ـ مجموعة قصص قصيرة
٢ ـ الجدار الآخر
ـ مجموعة قصص قصيرة
٣ ـ لحظات
ـ خواطر وتأملات
٤ ـ حوار .. وصدى
ـ رؤية انسانية عبر الحوار

ـــــ تحت الطبع ـــــ

□ ذلك الشقي ـ رواية
□ سواح .. في الغربة ـ رحلات
□ الصهد ـ رواية
□ ضوء في الوطن ـ مقالات

□ الرسوم واللوحات الداخلية للقصص :

بريشة الفنان السعودي

يحيى باجنيد



المؤلف

- وُلِدَ بمكة المكرمة عام ١٣٥٨هـ ١٩٣٩م وتلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي فيها (القسم الأدبي)
- عمل سكرتيرًا للتحرير في صحف: البلاد - عكاظ المدينة المنورة، ثم مديرًا مسؤولاً عن التحرير في صحيفة عكاظ
- يعمل حاليًا مديرًا متفرغًا لتحرير صحيفة "الشرق الأوسط" العربية، ومجلة "المجلة" الأسبوعية الصادرتان عن الشركة السعودية للأبحاث والتسويق بجدة.
- كاتب متميز.. وصحفي عُرف بأسلوبه الخاص.
- أصدر أول مجموعة قصصية له عام ١٣٨٢هـ بعنوان: "حياة جائعة"
- أصدر مجموعته القصصية الثانية عام ١٣٩٠هـ بعنوان: "الجدار الآخر"
- أصدر كتابه الثالث بعنوان: "لحظات" عام ١٣٩٤هـ وهو خواطر وجدانية وتأملية.
- أصدر كتابه الرابع "حوار وصدى" عام ١٣٩٨هـ عن الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون.

شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر
Al Madina Printing & Publication Co.